

من مذكرات استاذة

سعاد الراعي

— مجموعة قصصية —

الأستاذ عادل سالم..

اهديك نسخة من هذا العمل المتواضع بكل
ما يحمله من معاني التجربة.

مع الاعتزاز



سعاد الراعي

المانيا/ درسدن 2026.03.16



من مذكرات أستاذة

سعاد الراعي

— مجموعة قصصية —

Title: العنوان:
From the notes of a teacher من مذكرات استاذة

Author: تأليف:
Suad Alraee سعاد الراعي

All Right reserved جميع الحقوق محفوظة

Cover design: تصميم الغلاف:
Tarik AL-Hilfi طارق الحلفي
First Edition 2026 الطبعة الأولى 2026

This book was printed in Press تم طباعة هذا الكتاب في مطبعة
wir-machen-druck / نحن نطبع / المانيا
Germany

ISBN: رقم الإيداع/ الترقيم الدولي:

"978-3-9825711-4-0"

"978-3-9825711-4-0"

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means. without the prior written permission of the author.



متعة الترحال مع الأستاذة

العمل الأدبي الإبداعي، مهما اختلف جنسه، لا يمكن وضعه خارج العلاقة الوطيدة بين روح الكاتب وعقلية المتلقي، كلاهما يبحث عن شيء ما، وبغيره، لن يكون للإبداع من مكان. يمتلك القارئ للرواية أو الشعر، الإحساس بالقرب من صاحب الكلمات، لأنه بلا تعقيد، يشعر أنه اقترب من روحه التي وضعها مخفية بين الكلمات، وربما هذا بالذات، ما يريد الكاتب

أن يوصله لنا، نحن القراء. لعل هذا ما شعرت به وأنا أتصفح القصص القصيرة، الغزيرة، التي احتواها غلافًا كتاب (من مذكرات أستاذة)، للأستاذة سعاد الراعي.

يضم الكتاب قصصًا تسعة، تبرع الكاتبة في الانتقال بها في عوالم من الشخصيات التي، بلا شك، قد خبرتها وفهمت جوانبها النفسية بعمق. الأستاذة ذاتها تتسم بشخصية متزنة، حكيمة، ذات عمق فكري وأخلاقي، وتستطيع أن تتحول من حالة الدهشة والمرارة إلى حالة الهدوء والتفكير العميق. تنتظم تلك القصص القصيرة جميعها بخيط يمثل الصراع الجدلي بين الحداثة والتقليد، الهوية والانتماء، وإشكالات الغربة بما تلقاه من ظلال قاتمة على المعتكك النفسي.

لو جاز لي، كقارئ ومتذوق، أن أوجز الرأي في القصص التسعة، فأنتني سأضع القصة الأولى المعنونة "ان شاء الله يا أستاذة" في ساحة الصراع الأيديولوجي بين أستاذة علمانية وطالب متشدد، اختارت الحجاب لكي يكون مادة للحوار حول اشكالية الدين والتأويل الشخصي. وفي قصة "ذاكرة في ظلال الغياب" تصوير مؤثر لما تعانيه الشيخوخة من وحدة مصحوبة بخيبة أمل، لتطرح مشكلة إهمال كبار السن من ذويهم. القصة الثالثة التي توشحت بعنوان "عندما يكون الفكر ثالثهم"، وهذه استعارة ذكية، نرى احتدام الجدل بين أستاذة وطالب حول حرية الاختلاط ودور الشيطان فيها، إنها ببساطة تحويل الجدل الديني إلى دفاع جاد عن العقلانية. أما معضلة تحويل العلاقة الإنسانية إلى مادة فكان جوهر القصة الرابعة التي

شخصت معاناة زوج يتحطم تحت وطأة خيبة الأمل في الإنجاب لتتحول تلك الخيبة الى صراع بين الضعف والكبرياء. وفي قصة "في حضرة الأستاذة" فقد صورت العلاقة المخلخلة بين أستاذة وطالب يبعث لها رسائل غامضة بأسلوب مشوق يلخص الإعجاب المرّضي إن صح التعبير. تتسم القصة السادسة "عقدة كاتب" بتحليل نفسي دقيق لعقد النقص والتكبر، والسخرية اللاذعة، الممثلة بنرجسية كاتب يتبختر في حفل لزميل له، إنها تصوير جميل ومتقن لما يمكن تسميته الأنانية المثقفة. وقد حرصت الكاتبة في قصتها الأخيرة "الدرس الأخير" أن تترك لنا نهاية سائبة للتفكير وهي تخوض في موضوع شأنك يتناول تعلق طالبة بأستاذتها في بيئة محافظة تحرم حتى الحديث في موضوع كهذا.

حرصت الكاتبة أن تسرد الأحداث، وهي أحداث واقعية، بأسلوب، يمكننا أن نسميه النثر المتأنق، تتخلله لمسات شعرية، تعبّر عن انفعالات وجدانية. اهتمت الكاتبة أن تكون أغلب شخوص قصصها من النساء، ربما لأنها تفهم اختلاجات الأنثى بصورة أوضح وأدق. ومن الواضح أن الغربة والترحال، الذي استمر لأمد غير قصير، قد خلّف في نفسية الكاتبة الكثير من المرارة والألم، وهذا ما عبرت عنه بجلاء في قصة اللاجئة السورية التي روت فاجعة هروبها وموت والدتها.

ان القوة في القصص تكمن في العمق الفكري والنفسي، والجرأة في طرح المشاكل التي قد يتردد الكثيرون في الخوض

فيها، اضافة الى اللغة الأدبية الرصينة التي أولتها الكاتبة الكثير من العناية. ان امتلاك الكاتبة الوعي والوضوح في القضايا الاجتماعية أهلها أن تبذع في وصف الاختلاجات النفسية لشخصها. يذكرنا هذا بأسلوب غادة السمان وألفة الأدبي في تعاملهن مع الصراع النسوي في المجتمع، مع مراعاة اختلاف الأسلوب والطرح لكل كاتبة.

ليس لي بعد تمتعي بقراءة تلك القصص التسعة إلا أن أتمنى على الأديبة المبدعة سعاد الراعي أن تتحفنا بالمزيد من إبداعها المميز في سرد القصص الملتصقة بالواقع الذي عاشه كل مغترب، باختلاف الطرق والبقاع.

الدكتور عادل الحنظل

البصرة/ العراق

2026.01.31



كانت أوقاتها في المعهد تنتظم بانتظام الدقائق على عقارب الزمن، تحضر إلى محاضراتها حين تدق ساعتها وتغادر فور انتهائها، إلا ما استثنته الاجتماعات الإدارية الدورية والأنشطة التعليمية التي تفرض حضورًا كاملاً.

وفي أول أيام العام الدراسي، بعد عطلة صيفية امتدت كفسحة تأمل بين ضفتي الروح، قررت أن تسبق محاضرتها بساعة كاملة، علّها تلملم أنفاسها قبل أن تواجه وجوه الطلبة الجدد.

توجهت نحو غرفة الإدارة لتوثيق حضورها حسب مقتضى النظام، لكن العميد استوقفها بلطف وأشار إليها أن تتبعه إلى مكتبه، مبدئياً رغبته في مناقشة أمر يتعلق بأحد الطلبة. رغم استغرابها من هذا الاستدعاء المبكر، فإنها لم تبد

اعتراضًا، فما يزال اليوم وليدًا، والطلاب وجوه جديدة لم تألفهم بعد. اكتفت بالقول:

– إن شاء الله خير.

ابتسم العميد، وكأن في ابتسامته عزاءً خفيًا، وقال:

– نعم، كل الخير بإذن الله، وكما عهدناك دومًا: الصعب أمامك يسير، والمعقد بين يديك يلين.

ثم جلس مستندًا إلى ظهر كرسيه، وأخبرها ببساطته المعهودة:

– أحد الطلاب يرفض حضور محاضرتك... لأنه يرى أنك غير محجبة.

رفعت حاجبيها بدهشة، وقالت بصوت حائر:

– ولكن... المعهد يضم العديد من الزميلات والعاملات غير المحجبات.

وأضافت مبتسمة:

– بل إن نائبة العميد نفسها ليست محجبة، وأشارت إليه

أجابها بهدوء:

– أعلم ذلك، وقد أوضحت له أننا لا نفرض زياً موحداً، ولا نُخضع القوانين لأهواء الأفراد. ومع هذا، أصرّ على موقفه، وذكر اسمك تحديداً، ربما لأنه لم يسبق له حضور محاضرة لك.

تتهدّت عميقاً، كأنها تحاول أن تلفظ معها كل ذلك العبث الذي يتسرّب إلى جدران المعرفة. تمتمت بمرارة:

– الحجاب... الحجاب... كل يوم أسمع صراخ شيوخ ومفتين، خطباء المسجد القريب من بيتي، لا يكفون عن الشتائم والوعيد ضد كل امرأة لم تخضع لمقاييس دينهم الخاص، يحرّضون الأزواج والشباب البسطاء ضد النساء، بأقسى العبارات وأقذرها سوقية، حتى يُخيل للسامع أن العالم لا يتسع إلا لكلمتين:

يا أبيض، يا أسود... يا حلال، يا حرام! وأنّ المرأة هي أسّ المشاكل في عالمهم.

سكنت لحظة، قبل أن تعود إلى رباطة جأشها قائلة:

– أشكرك على إحاطتي بالأمر. أرغب أن أجتمع بالطالب بعد انتهاء محاضرتي، في المكتب... لعني أفهم مشكلته عن قرب.

خرجت من مكتب العميد، وحولها ظلال الأسئلة تتهامس، هل كان عليها أن تخوض معركة أخرى في سبيل حرية الفكر، أم

يكفيها أنها واقفة هناك، بكرامتها، تفرع أبواب الوعي في زمن غلّفت فيه الأرواح بالخوف والجهل؟

بعد انتهاء المحاضرة، قصد الطالب مكتب الأستاذة، فتلقته بابتسامة دافئة رغم أنه لم يكف نفسه عناء إلقاء التحية. دعتة إلى الجلوس... وسألته، بهدونها الذي اعتادته روحها:

- بلغني أنك تمتنع عن حضور محاضراتي بدعوى أنني غير محجبة، أهذا صحيح؟

أجاب الطالب، مختصرًا كلماته:

- نعم.

تأملته لحظة، ثم تابعت بنبرة هادئة ولكنها تحمل عمق التساؤل:

- ولكنك تجلس في قاعة واحدة مع زميلات لسن جميعهن محجبات، أليس كذلك؟

أجابها بنفس الجمود:

- نعم، غير أنني سمعت أنك تتحدثين عن الحرية الفكرية والعقل، وأنت علمانية ملحدة.

ابتسمت ابتسامة خفيفة، لا سخرية فيها ولا مرارة، بل حكمة امرأة أدركت تناقضات الحياة، وقالت:

- إذن ليست المسألة مسألة حجاب فحسب، بل تتعلق بالحرية والعقل، أو ربما هي موقف شخصي؟ يبدو أننا أمام عدة محاور للمشكلة، يتوجب علينا التوقف عند كل منها بتوذة. ما رأيك؟

تردد الطالب وارتبك، كان في عينيه شيء من الحيرة، وفي أطرافه ارتباك لم يحسن إخفاءه. وقبل أن يجيبها، التفتت الأستاذة وقد لمحت الفراش يمر قرب باب القاعة، فنادتته بنبرة دافئة:

- يا عم صالح، لو تكلمت... اثنان شاي باللبن، بارك الله فيك.

ثم التفتت إليه وقالت مبتسمة:

- يبدو أن حوارنا سيطول، فلنتهياً له.

استأنفت بلطف:

- بالمناسبة، لم أتشرف بمعرفة اسمك.

ردّ الشاب، محاولاً ترتيب أنفاسه:

- أحمد اليافعي.

ابتسمت بتوذة صادق وقالت:

- تشرفنا يا أحمد... فلنبدأ إذن بالحجاب، ما رأيك؟

هزّ رأسه موافقاً، فاسترسلت تسأله:

- هل أنت ضد كل النساء غير المحجبات؟

أجاب بتأنٍ:

- لا، ليس جميعهن، ففيهن المؤمنات.

رفعت حاجبها قليلاً، مستفهمة:

- حسناً، وكيف تميز إيمانهن؟

أجاب، متردداً، وكأنما يستدعي صورة ذهنية رسمها في أعماقه:

- المؤمنة خجولة، هادئة، لا ترفع بصرها... وغالباً ما تكون محجبة.

ابتسمت الأستاذة بحكمة العارف، وقالت بنبرة عميقة تحمل قدراً من العتاب الهادئ:

- لكن، يا أحمد، ما ذكرته كله لا يعدو كونه سلوكاً اجتماعياً خالصاً، حتى الحجاب ذاته، سلوك اجتماعي مقصده الحشمة والحياء... سلوكٌ يتشكل في قلب التربية والموروث الاجتماعي

للفرد، وليس عبادة مستقلة بذاتها، مَنْ أرادت ارتداه فلها، وَمَنْ لا، فلا يحق لنا أن نرميها في النار ونصفها بأقسي العبارات.

ساد بينهما صمت قصير، كأنما المكان يحتبس أنفاسه، فيما كانت الأفكار تتقاطر في ذهن أحمد، تطرق بحدة أسوار معتقداته.

قال بصوت يتهدج بين اليقين والتحدي:

- أليس الحجاب فرضاً قطعياً؟ أولم يرد في القرآن:
{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ}؟

رمقته بنظرة يختلط فيها الصبر بالحزم، وقالت:

- نعم، وردت الآية. لكن ألا تعلم أن الجيوب هي فتحة الصدر؟ وأن "ليضربن" تعني تعديل هيئة اللباس بما يصون، لا أن تُفرض طبقات من القماش دون وعي أو بصيرة؟ الدين ليس قيداً يُصاغ على هوى من يشاء، ولا قالباً جامداً تتوارثه الألسن دون أن يمر بالقلب والعقل.

ابتسم ساخرًا:

- أهو الدين كما ترغبين؟ ... وفق الأهواء؟

ردت بصوت متزن يحمل دفء الإيمان وصرامة الفكرة:

- لا، بل هو دين يُؤخذ بعقل نير، لا بعاطفة مضللة. أولم يقل سبحانه {أَفَرَأَى؟} لم يقل: اتبع وقلد، بل اقرأ، افهم، تدبر... الإيمان دعوة للعقل قبل أن يكون تقليداً أعمى.

تململ في مقعده وقال بتوجس:

- ولكن بهذه الطريقة يضيع الدين...

نظرت إليه بعينٍ تتقد بثقة المعرفة:

- لا يضيع الدين بمن يسعى لفهمه، بل يضيع حين يُسلم للجهلاء، حين تُسقى أحكامه من أفواه كل من هبّ ودبّ. أما من يجتهد بمنهج وبصيرة، فإنه يقترب لا يبتعد. ألم تقرأ:

{فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ؟} اقرأ القرآن الحي بقلبك كما تقرأه بعينك، دع قلبك دليلك لا قلوب المتجمدين الذين يرون في الدين مظاهر، ويغفلون عن جوهر الرحمة والهداية.

سألته فجأة، بابتسامة مشاكسة تخبئ شففة:

- هل تحفظ من القرآن شيئاً؟ وأعني شيئاً يتجاوز السور القصيرة...

تلعثم، ثم استجمع ذاكرته المتواضعة وقال:

- نعم... آية الحجاب: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ
وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ...}

شجّعته:

- أحسنت، أكمل الآية...

نظر في الفراغ قليلاً، ثم قال باعتذار:

- لا أنكر...

فأكملت له، بصوت امتزج فيه الحنان باليقين:

- {...ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ...}، أتدري؟

الغاية من إثناء الجلباب لم تكن عبادة شكلية، بل حماية من
أذى اجتماعي، ولذا لم يرد ذكره في أركان الإسلام الكبرى،
فالعبادات لا تُقاس بظواهرها بل بمقاصدها.

قال بحدة خافتة:

- لكن الشرائع فرضته...

هزت رأسها وقالت بهدوء الواصل:

- الشرائع اجتهادات بشرية، قابلة للأخذ والرد، ولذا هم
يختلفون، بل يكفر بعضهم بعضاً. سمعت ذات مرة جدالاً

محتدماً بين رجلين حول هيئة لباس الرجل: أحدهم يرى أن يرتفع الثوب عن الكعب شبرًا، والآخر يصصر على خمسة عشر سنتيمترًا! بالله عليك، هل اختزل الدين في خمار وثوب؟ الإيمان عماده القلب، وأركانه الخلق، وثمرته العمل.

اعتدل في جلسته، كأنّ ما سمعه بعثر شيئًا بداخله وأعاد ترتيبه. قال بنبرة متحدية:

- الدين جاء ليُطاع، لا ليُفلسَف، والحجاب وجوبٌ لا مجال فيه لتلك التأويلات.

أجابته بثقة:

- ومن قال لك إن الحجاب مجرد قطعة قماش تغلف الجسد؟ الحجاب ينمو في الروح قبل الجسد.

قال، بعد تردد:

- لكن... هذا ضياع وتحلل، والحرية قد تؤول إلى انفلات، والعقل يضل إن لم يُقيده الشرع.

ابتسمت، وفي عينيها ضوء يشبه الفجر:

- بل هو الجمود على ظاهر النصوص دون فهمها. الحرية نورُ العقل حين يهتدي بالله وبكتابه. قال تعالى: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}؟

والحرية الحقّة أن نؤمن لأننا اخترنا، لا لأننا أكرهنا.
 أما التكفير الذي يعتليه خطباء المنابر صباح مساء، فهو ما
 يُضِلُّ ويؤدّي إلى الفتنة، لا الحرية. اقرأ إن شئت: {فَمَنْ
 شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...}.

سألها وقد بدأ فكره يتأرجح بين ما اعتاده وما يسمعه:

- يعني، هل العقل فوق النص المقدس؟

أجابته بثبات:

- العقل خادم النص ومصباح فهمه، لا خصمه. والله تعالى
 يأمر عباده بالتدبر والتفكير قبل الاتباع، لا العكس:
 {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ}، {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}،
 {فَاتَّبِعُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}.
 فيا أحمد، الإيمان بحاجة إلى التدبر والتبصر والحوار.

نظر إليها مستنقهاً:

- هل تخصصت في أصول الدين؟

ابتسمت قائلة:

- لا، وأنت تعرف تخصصي، لكن فهم الدين ودراسته ليست
 حكراً على جنس أو جماعةٍ دون غيرها.

ساد بينهما صمت... لكنه لم يكن صمت الختام، بل بداية
تفكر. قالت وهي تنهض:

- أنا دائماً متوفرة إن رغبت بمواصلة الحوار، وأتمنى أن
أراك في القاعة مع بقية الطلاب غداً.

أجابها بهدوء:

- إن شاء الله، يا أستاذة.

**



أتذكّر تلك المرّة الأخيرة التي حملتني خطواتي إلى بيت
أستاذتي ماريا بعد رحيل زوجها، وقد ثقلت على صدري
مخاوف لم أفلح في تبديدها.

كنت كمن يُساق إلى غياب غير مسمّى، يحمل في داخله رجة
لا يفسرها العقل. وحين بلغت الدار التي طالما ارتدنتني بظلمها
الوارف، فوجئت بالفراغ يفتح ذراعيه لاستقبالي. لم يطلّ
وجهها من نافذة الباب كما اعتادت أن تفعل، ولم يطرق سمعي
وقع حذائها في الرواق.

صمتٌ كثيفٌ كان يخيم على المكان، حتى شعرت أن الجدران
نفسها تسرد عليّ غيابها بصوت مكتوم.

جلست على الدكة الحجرية أمام الباب، كأني أحرس غيابها بقلقٍ يثقل نظراتي، أترقب الطريق بعينين متوجستين، لعلها تعود من جولة قصيرة في الحيّ، أو يسبقها ظلها المتهادي من بعيد. كم من مرّة فتحت لي هذا الباب بعينين غارقتين في دموع الفرح، تحتضنني بحنوّ الأم وتقول بصوتٍ متهدّج: "أنت وحدك من لم يخذلني ويحرص على زيارتي، بوفاءٍ يفوق حتى وفاء أبنائي".

كانت كلماتها تلك ترسم على قلبي ندبة حنان وجرحاً صامتاً في آن، فهي تكشف وحشتها الخفية، وتعري غياب الأبناء عن حضنٍ ما زال ينتظرهم.

ذلك الانتظار عند عتبتها لم يكن انتظاراً عابراً، بل وقوفاً على تخوم الغربة نفسها، حيث الزمن يتباطأ حتى يكاد يتوقف، والدقائق تتمدد كأنها دهور تبتلعني في صمتها الثقيل. كنت أشعر أن المكان يتآمر مع القلق ليطيل غربتي عنها، وأن جدران البيت تتنفس غيابها كأنها فقدت نبضاً كان يمنحها الحياة.

وفجأة، انشقّ الصمت على وقع خطوات تقترب من السلم. انتفضت واقفة، يسبقني قلبي كطائرٍ مذعور، وتهيات لمدّ يدي إليها، لأحمل عنها بعض عناء الدرج، كعادتي كلما التقيتها. في لحظة خاطفة ارتسمت صورتها في خيالي: ميرا بلامحها التي جمعت بين صرامة السنين ودفء القلب، بضعفها الذي يخفي قوّة نادرة، وبحزنها الذي يفيض حناناً.

لكن القدر أدار وجهه عني، فإذا بي أمام وجه آخر:

جارتها. حبيتها بارتباك، وما كدت ألتقط أنفاسي حتى باغتتني بكلمات سقطت عليّ كالصاعقة: "ميرا لم تعد تسكن هنا... لم يبق سوى ابنها، يتردد بين الحين والآخر".

كان وقع العبارة أشدّ قسوة من الصمت الذي سبقها، إذ اختزلت كلّ شيء في جملة قصيرة، جملة حملت في طياتها غياباً كاملاً، واقتلاعاً موجعاً لجذور الألفة التي ربطتني بها. أحسست في تلك اللحظة أن الأرض تميد بي، وأن الأبواب جميعها أوصدت في وجهي دفعة واحدة. تجمدت ملامحي. سألتها بلهفة يائسة:

"وأين هي الآن؟" فأجابت بهزة رأسٍ ثقيلة، تحمل في طياتها أكثر مما تحتمل الكلمات:
"لا أعلم. ابنها يأتي ويذهب، ونادراً ما أراه، ولا أعرف عنه الكثير".

عندها اجتاحني شعور مباغت بالتيه، كأنني فقدت خيطاً نادراً كان يشدني إلى المعنى، وبدأت فكرة الفقد تترسخ داخلي رويداً رويداً.

كيف يُعقل أن تنقطع أخبارها فجأة؟ وكيف يغيب أثرها هكذا، وهي التي شكّلت لي سنداً وصحبة وملاذاً لا يعوّض؟

كانت زياراتي لميرا طقساً من طقوس الروح، أكرره مرتين أو أكثر كل شهر منذ تخرّجتي.

فما بدأ بيننا يوماً بعلاقة أكاديمية متينة، حيث كانت أستاذتي المشرفة ورئيسة قسم الاقتصاد في الأكاديمية، تحوّل مع الأيام إلى صداقة إنسانية عميقة، صداقة تسقيها التجارب، ويظلها الاحترام، وتغذيها الألفة.

كنت أجد في رفقتها صدقاً لوجه أمي الغائب، وملامح دفعٍ عائلي افتقدته منذ أن غادرت العراق قبل أكثر من عقد. بيتها كان أشبه ببيتِ ثانٍ، يردّ لي بعض ما سلب مني من شعور الانتماء، وحضور زوجها بجانبها كان يضيف على المكان طمأنينة العائلة الحقيقية.

بعد أن عصفت بها رياح السياسة فألقتها في بلغاريا، ميرا إيفانوفيتش، ابنة يوغسلافيا لم تكن وجهًا عابراً في سجل الأكاديمية، بل روحاً متوهجة تشع حضوراً إنسانياً نادراً. في عقدها السابع، كانت تجلس بيننا بوجه صاغته يد التجارب كما يصوغ النحات تمثالاً من صخرٍ عنيد، عينان غمرهما الحزن، لكن خلف سدولهما كان يطل بريق لا ينطفئ من مودة وحنان.

حملت قلباً أنهكتها العلة، غير أنه، على وهنه، ظل رحباً كسماءٍ مفتوحة، يفيض بالعطاء لطلابها ولزملائها وكل من طرق بابها. وفي قاعات الأكاديمية، بدت مثال الصرامة والنبوغ، إلا

أن إنسانيتها الشفيفة كانت تنسج حول تلك الصرامة ثوبًا من رقة ودفء، فتقربها من الأرواح اقترب الأم من أبنائها.

غادرت الدار مثقلةً بالأسئلة، يرافقتني صدى خطواتي كأنه عزاء مبكر يشيعني. كنت أمشي وفي داخلي مقاومة صامته لهذا الغياب المفاجئ، فميرا لم تكن مجرد أستاذة عابرة في حياتي، بل كانت جسرًا يعيدني في كل مرة إلى معنى الانتماء، إلى جذور الإنسان في قلب إنسان آخر. وفي الطريق إلى مساكن الطلبة حيث أقيم، كنت أشعر بالقرار ينضج بداخلي دون أن أصرح به:

لن أترك خيطها ينقطع. لا بد أن أجد سبيلًا يقودني إليها.

كان عليّ أن أذهب إلى قسم الاقتصاد، القسم الذي حمل بصماتها حتى آخر لحظة قبل تقاعدها، عليّ أعر هناك على أثر يقودني إليها، أو يفتح أمامي نافذة صغيرة تطلّ على مصيرها.

أسير بخطى متسارعة، تنتاز عني مشاعر متناقضة، قلق ينهش صدري، وحنين يلوح لي بصورتها وهي تروي ذكرياتها الصارمة، وأمل خفي يهمس بأن اللقاء القادم لم يُغلق بعد. فقد كنت أعلم في قرارة نفسي أن بعض الوجوه لا يطويها الغياب، لأنها تستقر في أعماق الروح، لتظلّ حيةً فينا ما حيينا.

كانت زيارتي الأولى للقسم بعد التخرج تحمل مزيجًا من الحنين والارتباك، كأني أعبر من بوابة الزمن إلى ماضٍ ما زال ينبض في قلبي.

استقبلتني السكرتيرة بابتسامتها المشرقة ودفئها الذي يشبه العناق الخفي، ثم دعيتي إلى مشاركتها فنجان قهوتها الصباحية.

كان بيننا ألفة قديمة تنسجها خيوط الصداقة التي جمعتنا بميرا، فبادرتها بالسؤال عنها، وقد كان اسمها يراودني كأغنية غامضة لا تفارق الذاكرة.

أخبرتها بما جرى في زيارتي الأخيرة لها، ثم سألتها عما إذا كان لديها خبر عنها، إذ كنت أتشبت بخيط من الأمل في أن أستعيد تلك اللقاءات التي اعتدت أن أستنشق منها شيئاً من المعنى.

لكنها فجأة أطلقت تنهيدة طويلة، كأنها تحمل في طياتها ثقل حكاية مؤلمة، ثم نظرت إليّ بعينين غيمهما الشجن وهمست: "ألا تعلمين؟ تُقيم الآن في أحد بيوت العجزة".

ارتجفت الكلمات في أذني كصفحة باردة، فقلت مرتبكة، وكأني أتشبت بالإنكار: "ماذا تقولين؟ قبل أقل من شهر فقط كنت عندها. صحيح، بدا عليها الإعياء، غير أنها طمأننتني بابتسامة صبورة، وأكدت لي أنها ما تزال تتابع علاجها بانتظام".

أطرقت السكرتيرة بحزن وأضافت:

"نعم... لكن سرعان ما انهارت صحتها، واحتاجت إلى رعاية خاصة لم تجدها في بيتها بعد أن انقطع عنها أبناؤها، وتركوها وحيدة في مواجهة جسد يخذلها يوماً بعد آخر".

تجمّدت الكلمات على شفتي، كأنها حجارة ألقيت في بئرٍ غائر، فيما تسللت مرارة حارقة إلى عروقي. ارتسمت أمام ناظري صورتها كما تركتها آخر مرة:

جلستها الواحدة قرب النافذة، أصابعها المرتجفة تعانق فنجانها كمن يستجدي دفناً ضائعاً، وعيناها تواريان خلف بريق خافت وجعاً أثقل روحها. كيف تُختزل حياة كاملة في غرفة باردة تُسمّى بيتاً للعجزة؟ أيعقل أن تطوى صفحات العمر بكل ما حفلت به من تعبٍ وصبرٍ وعطاءٍ جليل، ليكون الختام عزلةً وصمتاً وخذلاناً؟ أهذا جزاء السنين التي أنفقتها في البذل والعطاء، أن تُزاح كرامتها جانباً وتُلقي إلى الهامش، كأنها لم تكن يوماً منارةً للعلم ودفءً للأوممة؟

قلتُ بصوت مرتجف، أحاول أن أتمالك حرارة قلبي:

"وهل تعرفين عنوانها الآن؟"

فأومأت برأسها وهي تحاول أن ترسم ابتسامة شاحبة وقالت:

"نعم... بل أنوي زيارتها في نهاية الأسبوع. وإن رغبت، يمكننا أن نذهب معاً".

حينها انبثق من أعماقي لهف يفيض عن القدرة على الإخفاء،
وقلت بسرعة امتزجت فيها المرارة بالأمل:

"بكل سرور... وبكل شوق".

شعرت في تلك اللحظة أن قرار الزيارة لم يكن مجرد مبادرة إنسانية، بل وعدًا أصدرته لروحي قبل أن يكون لميرا- وعدًا أن أمسك بيدها من جديد، أن أقتسم معها صمتها وأوجاعها، وأن أكون شاهدة على نورها الأخير، مهما خفت ضياؤه في بيت لا يليق بامرأة بقامتها حملت في قلبها تاريخًا من العطاء والإبداع.

ومنذ تلك اللحظة، أخذتُ أتهيأ للقائها. كان الطريق إلى بيت العجزة في خيالي أشبه برحلة نحو عتمةٍ تتربص بالقلب. تخيلته شارعًا طويلًا تصطف على جانبيه أشجار بلا أوراق، أغصانها ممدودة كالذراعين المتسولين، والريح تعبث بها فتزيدها انكسارًا. كأن كل شيء يتهامس في أذني عن وحشة تنتظرني في نهاية الطريق.

كنت أرى بعين الخيال بابًا ثقيلًا من حديد يفضي إلى فناء صامت، لا تُسمع فيه سوى وقع الخطوات المترددة وزفرات الريح التي تتسلل بين الشقوق. جدران رمادية عارية من أي حياة، نوافذ مغلقة على أسرار ساكنيها، ستائر باهتة تشبه وجوهًا فقدت لونها مع الأيام. المكان كله ينهض كرمز للفقْد،

لانسحاب الحياة إلى أركان مهمة، حيث الأرواح تنتظر ببطء النهاية.

تخيلت الممرات الطويلة الضيقة، تفوح منها رائحة عقاقير ممزوجة بذكريات ذابلة، والأصوات الخافتة لأجساد تنفس بجهد، وأنين مكتوم يتسلل من غرف متقابلة. لا شيء يُسمع سوى صرير عربات متحركة أو وقع خطوات ممرضة متعجلة. حتى الزمن نفسه هناك بدالي وكأنه يتناقل، يجر قدميه ببطء قاتل.

كنت أتصور ميرا جالسة في إحدى تلك الغرف، عيناها شاخصتان نحو فراغ بعيد، كأنها تنتظر زائراً يوقظ في روحها بقايا حياة. رأيتها تبتسم على استحياء حين يدخل وجه مألوف، ثم تعود فتغيب في صمتها الطويل. شعرت أن كل ثانية من رحلتي إليها ستكون امتحاناً لقلبي:

هل أستطيع أن أمد لها يداً تحمل بعض دفاء؟ هل أقدر أن أعيد إلى روحها شيئاً من نورٍ رفض أن يخبو رغم كل ما أحاط بها من عتمة؟

كان الطريق إذن أكثر من مسافة تقطعها الخطى، كان معراجاً في داخلي، مواجهة مريرة مع هشاشة الإنسان حين يُترك عارياً أمام قسوة الوحدة.

وكلما اقترب الموعد، كان قلبي يضج أكثر، بين خوف من أن أراها منطفئة تماماً، ورغبة جامحة في أن أثبت لها أن ثمة يداً

ما زالت تمتد نحوها، لم تتخل عنها، ولم تجدها كما فعل
أبنائها.

وحين همستُ لنفسي في النهاية:
"سأقابلها"، شعرت أنني أستعيد بعض المعنى الضائع في
داخلي.

لم يكن الأمر مجرد زيارة عابرة، بل وعداً أن أكون معها في
وحشتها، أن أشاركها صمتها، وأن أكتب معها آخر سطور
كرامتها في عالمٍ لم يعد ينصت إلا للزيف.

عند وصولنا إلى بوابة بيت العجزة، ارتسم في داخلي شعورٌ
ثقيل يشبه الغيم الداكن الذي يسبق المطر. المكان بدا صامتاً
أكثر مما ينبغي، جدرانه باهتة وأبوابه مصفّدة بإحكام، حتى
الهواء كان مثقلاً برائحة العقاقير الممزوجة بملح الدموع
القديم. تقدّمت نحونا موظفة الاستقبال بابتسامة متكلفّة،
سرعان ما ذابت في رتابة صوتها وهي تطلب منا أن ننتظر
قليلاً ريثما تنهياً ميرا لاستقبالنا.

جلسنا في قاعة الانتظار التي ازدانت بمقاعد خشبية قاسية،
تنوزع عليها وجوه متعبة، بعضها غارق في الصمت،
وبعضها الآخر شارد في فضاء بعيد لا نراه. عقارب الساعة
بدت كأنها تخطو مثقلة بالأغلال، حتى مضت ساعة كاملة
ونحن ننتظر على أحرّ من الجمر. وفي النهاية أطلت الموظفة
لتعتذر بلطف بارد قائلة:

"لقد رغبت أن تبدو أمامكم في أحسن حال، ولهذا تأخرنا".

كانت كلماتها كسكين يمرّ على قلبي ببطء، إذ كيف يكون الجمال والتهيؤ غاية من غايات مَنْ أثقلها المرض؟ لكنني تماسكت، أدرك أن الأمر بالنسبة لميرا ليس ترفاً، بل بقايا كبرياء تحاول أن تحافظ عليه رغم انكسار الجسد وتناقص الذاكرة.

وفي الطريق المؤدي إلى غرفتها، لحقت بنا الموظفة نفسها بخطوات مسرعة، ثم همست:

"الأفضل أن تنتظروها في غرفة استقبال الضيوف، سأصحبها إليكم حالاً".

شعرتُ لوهلة أن تلك الغرفة ستكون فاصلاً بين عالمين: عالم الذاكرة الذي كنت أتشبث به، وعالم الغربة الذي أجبرت ميرا على النزول فيه.

وما هي إلا لحظات حتى أقبلت بخطوات مترددة، نظراتها تائهة كأنها تستيقظ من حلم بعيد.

بدت مذهولة، تحدق في وجوهنا وكأنها تقتش عن ملامح لم تعد مألوفة لها.

هببت نحوها أحتضنها بنظراتي وبكل ما فيّ من شوق، ألقيت عليها تحية تتشبث بالدفء، وحاولت أن أستعيد بشاشتها التي

كنت أعرفها، لكنها لم تكن هي نفسها. كان بيننا جدار خفي من الغربية، فصلٌ صامت جعلني أشعر أنني أقف أمام ظلّ ميرا لا ميرا نفسها.

ومع ذلك، جمعت بقايا قوتها ورحبت بنا بطريقتها، ابتسامة باهتة تحاول عبثاً أن تستعيد إشراقها القديم.

جلسنا متقابلين، وساد لحظة صمت مريبك، قبل أن تبدأ بالكلام بصوتٍ هادئٍ يكاد لا يُسمع، تحدثت عن أحوالها وكأنها تريد أن تطمئننا، ثم ذكرت، بفرح طفولي، أنها وزوجها كانا بالأمس في حفلة بهيجة حضرها البروفيسور كروكوف والرفيق يوري وآخرون.....

تجمّدت الدماء في عروقي، إذ كنت أعلم يقيناً أن زوجها وجميع من ذكرتهم قد غادروا الحياة منذ زمن بعيد. عندها أدركت الحقيقة التي طالما خشيتها:

ذاكرتها لم تعد ملكاً لها، الزمن انسحب من عقلها تاركاً فراغاً مريراً، والأسماء التي ترددها ليست سوى أطياف تستيقظ من ماضٍ بعيد لتملأ حاضرها الموحش.

أطرقتُ برأسي كي أخفي دمعة باغتتني. كان المشهد قصيدة فاجعة تُتلى بلا كلمات، قصيدة لا يُنشدتها سوى صمت ميرا، وعيناها اللتان تبرقان بغربة أليمة، كأنها تسير في متاهة لا أبواب لها ولا مخرج.

كنت أراقبها وأنا أحمل ثقلاً ينوء به القلب:

كيف لإنسانٍ قضى حياته عطاءً أن يكافأ في شيخوخته بهذا النسيان الفاجع؟ وكيف لروح ملأتها الحياة يوماً أن تُختزل في ظلال متكسرة من ذاكرة ممحوة؟ ومع ذلك، كنت أشعر في أعماقي أن حضوري، ولو للحظات، هو محاولة لإعادة تثبيت خيط رفيع بين عالمها الممزق وبين الحقيقة التي ما زلت أحملها عنها، خيط يربطها بإنسانيتها التي يأبى النسيان أن يمحوها تماماً.

حين نهضنا لنودّعها، شعرْتُ وكأنّ الهواء أثقل من أن يُستنشق، كأن كل ذرة فيه تئنّ تحت وطأة الفقد. مددتُ يدي نحوها، ارتجفت أصابعها بين أصابعي كعصفورٍ صغير فقدَ جناحيه، وارتسمت على وجهها ابتسامة غريبة، نصفها حيّ، ونصفها الآخر محجوب خلف ستارٍ سميك من الغياب.

نظرتُ إليها مطوّلاً، كانت عيناها تائهتين، كأنهما تسألان: من أنتما؟ ولماذا أتيتما؟ ... ثم تعودان لتقرّان إلى عالم آخر لا أراه.

وفي لحظةٍ خاطفة، أحسستُ أنني أنا نفسي ميرا، جسديّ حاضر، وروحٌ تتسرب من بين أصابعه. رأيتني أودّع العالم وأنا بعدُ واقفة، أراقب من بعيد حياتي وهي تنسلّ مني ببطء، أصدقاءً، ذكرياتٍ، أماكن، وجوهاً عزيزة. أحسستُ أنني أنا

الغريبة عن نفسي، غريبة عن الأسماء التي تتردد في رأسي
كأنها تعود لشخصٍ آخر عاش مكاني ذات يوم.

حين اقتربنا من الباب، التفتنا نحوها، رفعت يدها المرتجفة
كأنها تُلوّح للغائبين، لا للواقفين أمامها.

في تلك الإيماءة شعرتُ أن وداعها لم يكن لنا فحسب، بل وداعٌ
للحياة برمّتها. دموعي انسكبت في داخلي، ولم أجرؤ أن أدعها
تظهر، كنت أخشى أن تفضح هشاشتي، أن تزيد من انكسارها
وهي التي لم يبقَ لها سوى صبرٍ متهالك.

خرجتُ من المكان مثقلةً، لكن قلبي كان ما يزال عالقاً خلف
تلك الجدران الرمادية، عند سريرٍ بارد ونافذة نصف مفتوحة.
كنت أشعر أنني تركتُ جزءاً مني هناك، جزءاً صار يتكلم
بصوتها، يتنفس أنينها، ويذوي في عزلتها. كنتُ أنا وهي معاً،
ننقاسم صمتاً لا يعرفه سوانا:

**صمت الفقد الذي يذبح بلا دم، ويترك في الروح جرحاً لا
يندمل.**

وكلما ابتعدت خطواتي، كان داخلي يتمزق أكثر، كأنني أنا من
أغلق عليّ الباب في بيت العجزة، أنا من تُركت وحيدة بين
جدران عارية، أنا التي تودّع العالم بصوتٍ مبجوح لا يسمعه
أحد.

**



كنت أشعر، منذ اللحظة الأولى التي دفعتُ فيها باب القاعة، أن لهذا اليوم نبرة مختلفة، كأن شيئاً غامضاً يتهاياً ليشق صمته في الهواء. لم تكن الريح تهب، ولكن الجو مشحون على نحو غريب، كأن الجدران ذاتها تحبس أنفاسها في انتظار اشتعالٍ وشيك.

لم يكن موضوع محاضرتي اليوم مدرجاً ضمن الخطة الأكاديمية، ولا حتى من صميم تخصصي الدقيق، لكنه ظل يلحّ عليّ، يتردد في مسامعي كلما عبرتُ ردهات الكلية، أو جلست برهة في ركن الأساتذة أثناء استراحة الصباح.

كان سؤالاً يتكاثر همساً في الممرات، ويُلقي عابراً كجملة عابثة، لكنني كنت أعرف أنه أعمق من أن يُترك بلا مساءلة.

جلستُ كعادتي، لا على منصة عالية، بل أمامها، كما أو من دوماً أن المسافة بين العقول لا تُختصر بالارتفاع. صوت حذائي الأسود يلامس الأرض اللامعة بخفة، كأنه ينذر القاعة أن اللحظة بدأت.

وضعت دفتر ملاحظاتي أمامي على الطاولة، لا لأملي على أحد ما يُكتب، بل لأقيد على اللوح تلك الشدات التي تولد من شرارة حوار أو لحظة وعي خاطفة.

هناك، في أقصى الزاوية اليمنى، كان يجلس الطالب سلمان. عيونه لا تنقرس بل تترصد. شابٌ في مقتبل العشرين، يقف بين حداثة السنّ وصرامة اليقين. ثوبه الأبيض مرفوع بعناية فوق الكعب، مكوي بعناية توحى بأن كل شيء فيه محسوب، حتى نبرة الوقار التي يثبت بها كوفيته فوق رأسه كأنها راية لا تُنكس، أو خط تماسٍ يحدّر من الاقتراب.

رفعتُ رأسي وقلت:

- "نبدأ اليوم بسؤال مفتوح: ما حدود الحلال والحرام في فضاء الفكر؟ وهل يجب أن نخاف من السؤال إذا أمنا بالإجابة؟" ...

لم أكمل جملي، حتى رفع سلمان يده. لم يكن يستأذن بقدر ما كان يشهر سيفاً.

- "استاذة... قبل أن نتوه في الفلسفة والمصطلحات، دعيني أسألك".

أومأت له بابتسامة، لم أفقد بها هيبة اللحظة، بل وضعتها في
مرآة هادئة. قال:

- "ما رأيك بحديث النبي ﷺ:

ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهم؟ أليس في
لقاء المرأة بالرجل، كما يجري في صفوفنا المختلطة، مدعاة
للفتنة والريبة؟

ألا ترين أنكم، كأستاذة، تساهمون في تطبيع ما نهى عنه
الدين؟".

أغلقتُ دفترتي ببطء. أحسست بنظرات الطلاب تنقلب فجأة،
كأن الجميع استدار نحو مركز النار. ساد الصمت. كان وقع
كلماته كصفعة مباغتة في حضرة جمهورٍ يعرف أنني لا
أتهرب من الأسئلة، خاصة حين ترتدي ثوب "الدين". نظرت
إليه طويلاً، ثم رفعت عيني إلى الطلاب من حوله، وجدتُ في
وجوه بعضهم تردداً، وفي آخرين انبهاراً، وثلة تنتظر
"المعركة".

قلت بثبات وبنبرة هادئة، ولكنها لا تخلو من نصل الفلاسفة:

- "أولاً، لم يكن بيننا خلوة يا سلمان، نحن في قاعة فيها أربعون عقلاً يشهدون هذا النقاش. لكن دعنا نناقش المقولة... هل تعتقد أن وجود امرأة مع رجل يعني بالضرورة حضور الشيطان؟".

- "أنا لا أعتقد، أنا أو من بالنص. وإذا قاله الرسول، فالنقاش انتهى".

ابتسمتُ، ولكنها لم تكن ابتسامة لينة. كانت كنصل يلعب في ضوء الحجة.

- "وهل هو فعلاً حديث للرسول؟ ولنفترض جدلاً أنه كذلك، فهل تعلم متى قاله؟ ولمن؟ وفي أي ظرف؟
النصوص يا سلمان، لا تؤخذ مقطوعة من سياقها كأنها قطع من جدار.
لو فعلنا ذلك، سنحوّل الدين من نور إلى قيد، ومن هداية إلى عصا".

رفع حاجبيه كأنني أجدّف:

- "يعني... تنكرين الحديث؟".

- "أنا لا أنكر، أنا أستفسر وأفسّر.

وهل تظن أن الشيطان مربوطٌ بجنس المرأة؟

إن كنت تعتقد أن كل امرأة تحمل شيطاناً بين ضلوعها، كما يُلقن بعض الخطباء من على المنابر، فاسمح لي أن أقول: الشيطان الحقيقي هو هذه الفكرة. هذه النظرة التي ترى في المرأة شراً موجلاً، وفي الرجل مخلوقاً بريئاً وعاجزاً لا يصمد أمام أي نسمة أنثوية، تجعل من الرجل قاصراً عن مقاومة أي فتنة، وهذا ظلم له".

- "لكن... الفتنة واقعة، وكم من أخطاء بدأت بنظرة!".

- "وهل تمنع العيون أن تبصر كي لا تخطئ؟
أم نربي البصيرة على أن تختار؟!
منطقك يُشبه من يريد أن يطفئ الشمس لأن بعض الناس
يضلون في وضح النهار".

تقدّم خطوة للأمام، صوته بدأ يرتجف بشيء من الانفعال:

- "أنا أتكلم عن دين! عن أوامر ربانية! وليس فلسفة
بشر!".

رفعت يدي كمن يُهدى بحراً:

- "وأنا أتكلم عن جوهر الدين، لا عن قشوره. الدين الذي
جاء ليحرر لا ليقيد، ليوظ العقل لا ليُسكته. رسول الرحمة،
لم يمنع خولة بنت ثعلبة* من أن تشتكيه في المسجد، من أين
جاءتنا هذه الجرأة على تحويل الدين إلى سجن يخاف فيه
الرجال من النساء؟! يا سلمان، أنا لا أطلب منك أن تتخلى عن

دينك، بل أن تُنقّيه من سوء الفهم، القرآن والنبي أوصيا
 بالعلم والتعلم، فهل يخاف من عقل امرأة تحاور وتجادل؟
 أليس النبي هو القائل: طلب العلم فريضة على كل مسلم
 ومسلمة؟ فمن أين جاء هذا الخوف إذن؟".

ساد الصمت... ثم تكسّر في صوت طالبة من الخلف:

- "الله الله! هذا بحق.. كلام يُقال!".

لم أردّ، فقط نظرت إلى سلمان، كان وجهه محتقناً، ولكنه لم
 يعد ذلك القوي المتماسك. شيء ما تهدّم بداخله، شيء لم يكن
 كبرياءه، بل يقينه الموروث.

قلت أخيراً، بصوتٍ خافتٍ كأنني أخاطبه وحده:

- "يا سلمان... من يخشى لقاء امرأة في قاعة علم، فليفتش
 عن الشيطان في داخله، لا في عيون الآخرين".

ثم دونت في مذكرتي:

- "سألني: من ثالثنا؟ قلت:

عندما يكون ثالث اللقاء هو الفكر، لا الشيطان، ينتصر العقل
 على الوهم... وينقلب الصمت من الخوف إلى التأمل".

**

خولة بنت ثعلبة، المرأة التي جادلت الرسول - ﷺ - وسمعتها الله من فوق سبع سموات،
 وأجابها في القرآن "سورة المجادلة".



كانت تلك الزيارة الأولى التي تطأ فيها عتبة بيتنا وحيدة، بلا ظلّ زوجها ولا ضحكته التي اعتدنا أن تسبق حضوره. عرفتُ، قبل أن تنطق، أن شيئاً ما انكسر في داخلها. زوجي كان قد خرج إلى الساحل مع أصدقائه، يتهيؤون لليلة صيد، وبقي البيت لي ولها، ولصمتٍ ثقيلٍ أخذ يتمدد بين الجدران.

استقبلتها بحرارةٍ لم تستطع ملامحها المتعبة أن تردّها. كان الحزن يغشى وجهها كغيمٍ كثيف، لا يحتاج إلى سؤال ليُرى. ومع ذلك آثرتُ الصمت، فزواجها لم يمضِ عليه سوى أسابيع قليلة، بعد قصة حبٍ صاخبةٍ كانت هي شرارتها الأولى،

ناضلت فيها كما لو كانت تخوض معركة لإثبات حقها في الحلم.

عبد القادر... ذلك الاسم الذي كان يمرّ في المعهد العالي مقروناً بالاحترام. أستاذٌ منضبط، هادئ، يشي وقاره بحكمة لا تُجادل، وتفانيه في عمله يمنحه هالة رجلٍ كامل. كان قد خرج من زواج دام عشر سنوات، انتهى بلا أطفال، والهمس، الذي لا يجرؤ أحد على الجهر به، يقول إن العقم كان نصيبه وحده لأن زوجته السابقة قد تزوجت وأنجبت.

كان يحمل هذه الحقيقة كسرّ دفين، أو كجرح نرجسيّ يخشى أن يراه الآخرون، فالرجل الذي لا يخلف، في مجتمعاتنا، يُسلب إحدى علامات فحولته الرمزية، ويترك عارياً أمام مرآة قاسية.

منى كانت إحدى طالباته. لم تنتظر المصادفة، بادرت، اقتربت، نسجت خيوطها بصبرٍ ودهاء: فطورٌ صباحي، اهتمامٌ زائد، لحظات اختلاءٍ بريئة المظهر، ونزهات على الساحل بعد انتهاء الدوام. كان عبد القادر، المنهك من خيبته القديمة، يرى فيها فرصة لترميم صورته أمام نفسه قبل الآخرين. زواجٌ جديد، امرأة شابة تحبه، تعجب به، ترفعه إلى مقام طالما خشي السقوط عنه. كان ذلك كافياً ليصمت عن الحقيقة.

احتسينا الشاي بصمتٍ متوتر، ثم قالت فجأة، بلا مقدمات، كمن يرمي حجراً في ماءٍ راكد:

- هو لا يُنجب... هو عقيم.

وقعت الكلمة بيننا كصفحة. سألتها بهدوءٍ حاولتُ أن أستعيره:

- ألم تسأليه قبل الزواج؟ وأنتِ تعرفين أنه لم يُنجب من زوجته السابقة؟

هزت رأسها أسفاً ثم أردفت:

- لا، لم أفعل.

- لكن الجميع كان يعلم أنه مطلق ولا أطفال له.

أومأت برأسها مرة أخرى، وأضافت بمرارة:

- نعم... لكنني لم أتصوّر أنه عقيم. لم يكن صادقاً معي. وأنا... كأى امرأة، أريد طفلاً.

كان في صوتها صدقٌ موجه، وفي دموعها خيبة حلمٍ لم يُمنح حتى فرصة الاكتمال. سألتها:

- ولماذا لم تُلحّي بالسؤال؟

ترددت، واربتك صوتها، وفاحت رائحة الكذب الممزوج بالخلج:

- سألته... ولكن...

ثم انفجرت بالبكاء.

قلت، وكأنني أختبر المعنى:

- والحب؟ الرابط الذي بينكما؟

رفعت رأسها، وعيناها غارقتان في فراغ بعيد:

- وما نفع الحب بلا ثمرة؟ بلا طفل؟

في تلك اللحظة أدركتُ أن عبد القادر لم يكن فقط رجلاً أخفى عجزه، بل إنساناً أسير كبريائه، خائفاً من مواجهة نقصه، فاختر أن يبني سعادته على صمتٍ هشٍّ. ومنى، التي دخلت الزواج منتصرة، اكتشفت أنها خرجت منه مهزومة، تحمل في رحمها حلمًا لا يُولد.

سألتها أخيراً، بصوتٍ خافتٍ كأنني أخشى أن أوقظ وجعاً نائماً:

- وما الحل؟

لم تُجب. ظلَّ السؤال معلقاً بيننا كندبةٍ مفتوحة، لأن بعض الأسئلة حين تأتي متأخرة لا تطلب خلاصاً، بل تبحث عن شاهدٍ أخير على انكسارٍ لا يُجبر.

حين غادرت، بقي البيت مشبعاً برائحة الشاي البارد، وبأثر حكاية حبٍ انطفأت قبل أن تُنجب حتى ذاكرتها. كان بينهما

ملتصقًا ببيت عائلتها، قريبًا جغرافيًا تحوّل سريعًا إلى حصارٍ نفسي. الأبواب المتجاورة لم تكن مجرد جدران، بل ممرات مفتوحة للتدخل، وللهمس الذي سرعان ما يصير أوامر. وما إن عرف أهلها نقطة ضعفه، حتى دخلوا منها بلا تردد، كمن يضغط على جرح ليتأكد أنه ما زال ينزف.

في البدء، بدا الأمر رحيماً في ظاهره: إلحاحٌ على السفر للعلاج، على استعادة الرجولة من بوابة الطب. وافق عبد القادر، لا بدافع الأمل وحده، بل بدافعٍ أعمق:

رغبته العارمة في ترميم صورته أمام نفسه قبل الآخرين. سافر، طرق أبواب الأطباء، أنفق بلا حساب، وبذل ما يشبه الفداء، كأن المال قادرٌ على شراء ما عجز الجسد عن منحه. لكنه عاد كل مرة بخيبةٍ أنقى، وبصمتٍ أثقل.

منى، التي دخلت الزواج امرأةً عاشقة، بدأت تتحوّل إلى امرأةٍ تطالب.

لم يكن طلبها قاسياً في ذاته، لكنه كان يتراكم، مدفوعاً بأصواتٍ أخرى خلفها. أهلها، وقد أدركوا أنه الابن الوحيد لعائلةٍ ثرية، وأنه الوريث الذي لا شريك له، رأوا في ضعفه فرصة. طالبوه أن يعوّضها، لا بالحب ولا بالحنان، بل بالأوراق والعقود. أن يكتب لها ممتلكاته، كأن الملكية يمكن أن تملأ فراغ الرحم.

وافق... تنازل عن الجزء الأكبر من أملاكه، لا لأنه مقتنع، بل لأنه كان يظن أنّ التضحية ستعيد له احترامه المهذور. كان يرى نفسه رجلاً كريماً، فوق الشبهات، قادراً على العطاء حتى وهو مكسور. غير أن التنازل لم يُطفئ النار، بل زادها اشتعالاً.

بدأوا يعيرونه، يذكرونه بعجزه، يسلمونه من آخر ما تبقى له من كرامة صامتة.

لم يحتمل. الجسد، الذي طالما خانته، قرر أن يعلن تمرده الكامل.

تدهورت صحته على نحوٍ غامض، أعراض بلا اسم، آلام بلا تفسير.

الأطباء وقفوا حائرين أمام حالته، كأن المرض لم يكن في عضو بعينه، بل في مكانٍ أعمق، حيث تتراكم الهزائم غير المعترف بها.

سافر عبد القادر إلى الخارج طلباً للعلاج، لا لأن الأمل كان واضح المعالم، بل لأن الهروب أحياناً يتخفى في هيئة رجاء. كانت منى إلى جواره، تمشي بمحاذاة ظله لا أمامه ولا خلفه، كأنها تخشى إن تقدّمت أن تتركه وحيداً مع هزيمته، أو إن تأخرت أن تفقد ما تبقى منها.

في غرف الانتظار، حيث تختلط اللغات والروائح وأصوات الأجهزة، كانت تجلس صامتة، تحمل على وجهها إرهاب امرأة

أنهكها الوقوف طويلاً بين حبٍ لم يبلغ تمامه، وطموحٍ ظلّ مؤجّلاً كرسالةٍ لم تُفتح.

لم يستطع الأطباء تشخيص حالته، فالفحوص كانت سليمة، والتقارير محايدة، والجسد، في ظاهره، لا يشي بما يعتمل في داخله.

لأن ما كان يفتك به لم يكن مرضاً يُقاس أو يُرى، بل تصدّعاً عميقاً في صورته عن نفسه.

عبد القادر، الذي بنى حياته على وقار الأستاذ، وهيبة الرجل المتماسك، وجد فجأة أن كل تلك الأفتحة لا تصمد أمام حقيقةٍ واحدة:

عجزٌ مسكوت عنه، وكرامة مجروحة لم تتعلم يوماً كيف تعترف بالهشاشة.

كان في داخله رجلٌ يريد أن يُرى كاملاً، حتى وهو ناقص. أراد من السفر أن يكون إعلاناً أخيراً عن قوته:

"ما زلت أقاتل".

لكنه، في أعماقه، كان يعرف أن المعركة خاسرة، وأن الجسد ليس سوى مرآة تعكس هزيمةً أقدم.

ومع كل فشلٍ جديد، كان يصمت أكثر، لا تواضعاً، بل خوفاً من أن يتداعى ما تبقى من صورته أمام منى، المرأة التي أحبته لأنه بدا لها يوماً منتصراً على العالم.

منى، من جهتها، لم تكن أقلّ تمزقًا. ربما كانت تحبّه، لكنها كانت تحب أيضًا صورتها المستقبلية:

أمّا، مكتملة، مرئية في عيون المجتمع.

اكتشفت متأخرة أن الحب وحده لا يكفي، وأن الزواج بلا حلم يولد يتحوّل إلى مرآة قاسية، تعكس للمرأة حدود صبرها، وللرجل حدود كبريائه.

كانت تطالب، لا طمعًا فحسب، بل خوفًا من أن تذوب في حياة بلا أثر، أن تصبح زوجةً لوجعٍ لا اسم له.

مضيا معًا في طريقٍ بلا لافتات، كلُّ منهما يسير على حافة ذاته.

هو يصمت لئلا ينهار، ويتشبّث بصمته كأخر ما يملكه من سيطرة.

وهي تتكلم وتطالب، كمحاولةً يائسة للإمساك بمعنى ما. وبين الصمت والمطالبة، كانت حياتهما تتأكل ببطء، كشمعة تحترق لا لتضيء، بل لتؤكد أنها كانت هنا يومًا، وأن هذا الاحتراق لم يكن بلا ثمن.

وحين رحل عبد القادر أخيرًا، لم يكن الرحيل مجرد موتٍ جسدي، بل نهاية سردية رجلٍ عاش وهو يدافع عن صورةٍ لم تسمح له الحياة بإكمالها. بقيت منى وحدها، لا أرملة رجلٍ فحسب، بل شاهدة على قصةٍ لم تكتمل. بقيت تحمل اسمه كندبة، وذكره كدرسٍ قاسٍ. بقيت منى... وبقي معها أثره.

رجلٌ غاب، وترك خلفه امرأةً تعلّمت، متأخرة، أن النجاة
أحيانًا ليست في البقاء مع الآخر، بل في القدرة على البقاء
والاستمرار بعده.

**



مع كلِّ صباح جامعيّ ينهض فيه الفجر بخطاه الهادئة، تكون القاعة ما تزال غارقة في نعاسها، غير أنّ قلباً شاباً كان يستيقظ قبلها بوقت طويل، يخفق خلف بابٍ ثقيل كأنما يتهيّب دخوله إلى عالمٍ يعرف أنه سيزلزله بمجرد أن يراه.

يدخل الطالب بخفة من يخشى أن يوقظ الصمت، يتقدّم بين المقاعد التي لما تزل بعد فارغة، ويتّجه صوب المنصة التي ستتجلّى عليها بعد لحظات الأستاذة التي تجاوزت في نفسه حدود الإعجاب، واقتربت من منطقة لا تُسمّى إلا همساً، تلك المنطقة التي لا يعترف فيها القلب إلا بوردةٍ حمراء.

كانت الوردة، في كل صباح، لغته الوحيدة، اعترافاً يتنصّل من جسارته فيتركه هناك ثم يغادر قبل أن يدركه السؤال. لا يريد أن يُعرف، ولا يطلب من العالم شيئاً سوى أن تصلها تلك اللمسة الخجولة التي تحمل قلباً يتدرب على الحب كما يتدرب على المعرفة.

وهي، كلما دخلت القاعة ورأت الوردة تستقرّ فوق الطاولة، تتوقف لثانية قصية لا ينتبه لها أحد. تلتقط الوردة بأصابع تعرف الرهافة، وتستنشق عبيرها بشيء يشبه الدهشة الرقيقة، ثم تُرسل في الهواء شكراً لا يسمعه أحد... شكراً لا تدري لمن يتوجّه، ولا تعلم أهو طقسٌ تخلقه القاعات وحدها أم لفظة خُصت بها دون سواها. ثم تكمل محاضرتها كأن شيئاً لم يُترك في طريقها، كأن قلباً لم يُودع أثره أمامها كل صباح.

يمضي كلُّ منهما في يومه: هي لا تعرف أنّ الوردة اعترافٌ مكتوم، وهو لا يدري إن كان شكرها قبولاً أم مجرد صدى عابر... وبينهما تظل القاعة تحتفظ بالسرّ، سرّ ينمو بصمت، كما تنمو الحكايات التي تنتظر أن تُروى.

وظلّ كل شيء على رتابته الهادئة، حتى جاء ذلك الصباح الذي اختفت فيه الوردة الحمراء عن طاولتها، كأنها رقت بجناحٍ خفيٍّ وغادرت.

لم تكترث، لا شيء يستحق الالتفات، ثم تابعت محاضرتها بصوتٍ مستوٍ تحكمه مهنتها.

لما جمعت أوراقها وهمت بالخروج، لحقتها طالبة عند الباب، ترفع ما بدا كأنه ظلّ صغير لسرّاً ما: **ظرف مغلق بإحكام**. قالت الطالبة:

"يا أستاذة... هذا الظرف سقط من بين أوراقك".

توقفت، وحدقت في الظرف بدهشة حذرة وسألتها:

"أمتأكدة أنه لي؟ لا أذكر أنني أحمل شيئاً كهذا".

أجابت الطالبة بثقة لا تهتز:

"بلى، رأيتَه يسقط ولم تنتهي".

شكرتها، لكن الحيرة كانت قد مدّت أصابعها إلى كيانها وهي تقلّب الظرف بين يديها. لا اسم، لا عنوان، لا إشارة تفود إلى أحد. مجرد قشرة صامتة تحتفظ بسرّها كما لو كانت تخاف أن يشرق الضوء عليه.

خطرت لها فكرة العودة إلى القاعة وسؤال الطالبة، لكنها تراجع:

فلو كان الظرف يخصّ أحدهم، لأعلن عن ذلك، فهم ما زالوا هناك، ثم إن رابطتها بهم ليست رابطة أستاذة بطلاب فحسب،

كانوا يرون فيها أختاً أو صديقة تقاسمهم التفاصيل الصغيرة والطيبة، ولن يتردد أحد منهم في استعادته إن كان له.

وضعت الظرف في درج مكتبها، ثم أهملته... أو كأنها دفنته مؤقتاً كي تهدأ أسلنتها.

مضت الأيام على هدوئها المعتاد، إلا أن الوردة الحمراء لم تعد لتزيّن طاولتها من جديد، كأن غيابها كان أول خيط في خيوط لغز أكبر.

وبعد أسبوع تماماً، دخلت القاعة لتجد الظرف ذاته ينتظرها على طاولتها.

بهتت لحظة، ثم قالت بصوتٍ امتزج فيه الحزم بالدهشة:

"لمن هذا الظرف؟ وما قصته؟ الأسبوع الماضي وضعته في درج المكتب... فكيف يعود إليّ هنا؟ هل لدى أحدكم تفسير؟".

ضحكت إحدى الطالبات، وقالت بمرحٍ يغازل الغموض:

"لقد أثرتِ فضولنا يا أستاذة... يبدو أنه يتبعك، أو لعله يعرف طريقه إليك وحدك".

ابتسمت الأستاذة، محاولة أن تبدّد ما يتصاعد داخلها، وقالت مازحة:

"ربما... وربما لا".

ثم وضعت الظرف فوق أوراقها بلا مبالاة، وتابعت محاضرتها، غير أن قلبها كان يشتغل في الخلفية، يعجّ بالأسئلة كبحر تحت قشرة هدوء مضلّلة.

وحين انتهت، جمعت أوراقها والظرف معها، وغادرت القاعة بخطوة يحرسها القلق أكثر مما يحرسها اليقين... كأنها تمشي نحو بداية شيء لم يتضح شكله بعد.

وما إن دخلت مكتبها، حتى سرى القلق في صدرها بخطى خفية. تقدّمت نحو الدرج الذي كانت قد أودعت فيه الظرف السابق قبل أسبوع، ولما فتحته فوجئت بأن الظرف الأول ما يزال في مكانه، لم يتحرك قيد شعرة.

حدّقت فيه مأخوذة، ثم رفعت الظرف الذي تحمله بيدها... فإذا به، شبيهه حدّ الالتباس، مماثل له حدّ إثارة الريبة. عندها همس في داخلها صوتٌ مضطرب:

أي لعبة تُحاك؟ وما الذي يُراد من ذلك؟

وقفت لحظات كأنها معلّقة بين فضولين: الارتياح والحذر. كانت تشعر بأن شيئاً ما يتقدّم نحوها من عتمة مجهولة، شيئاً يستهدفها تحديداً، لا كأستاذة بين طلابها، بل كامرأة تحمل قصة ما تحرص على ألا تبوح بها ملامحها الهادئة. جمعت الظرفين بين يديها، وارتعاشة خفيفة تعبر أصابعها، ليست ارتعاشة ضعف، بل ارتعاشة من تقف على عتبة سرّ لم تختره ومع ذلك لا تستطيع الهرب منه.

تنفّست بعمق، كمن يتهيأ لخطوة لا رجعة فيها، ثم فتحت الظرف الأول.

كانت الكلمات مطبوعة، جامدة، بلا دليل يشي بصاحبه، بلا توقيع يدلّ على روح تقف وراء الرسالة. ومع ذلك، شعرت وهي تقرأ السطر الأول بأن أحدهم يطرق باب عالمها الشخصي... بقوة لا تخطئ.

”أستاذتي الجلييلة...“

أكتب إليك وقد أوشك قلبي أن يفيض بما لم يعد يحتمله من صمت.

ما عدتُ قادراً على إخفاء إعجابي بك، لا لأنك متقنة لمادتك فحسب، بل لأنك تحملين ذلك الحضور المرهف الصارم الذي يوقظ في المرء إحساساً نادراً بالانجذاب إلى الضوء. طريقة تدريسيك التي تجمع بين الحكمة وخفة الروح، وإدارتك للدرس وكأنك تضبطين إيقاعاً خفياً لا يسمعه سواك، كلها صنعت في داخلي أثراً لا يشبه أثراً آخر.

ظننتُ إعجابي بك احتراماً طبيعياً لأستاذة تتمتع بهيبة المعرفة، فإذا به يتحوّل إلى هاجسٍ يطاردني أينما توجهت. صرتُ أتحين اللحظة التي تدخلين فيها القاعة كمن يتربقّب انفتاح نافذة على حياة أخرى. حتى الأشياء الصغيرة التي تلامس يدك كانت تغدو في نظري بقايا نور، قطعة طباشير انكسرت بين أصابعك، منديل رمته يدك بخفة في سلّة

المهملات... كنت أحصيها كمن يحاول القبض على أثرٍ يبدد
غيابه ويمنحه وهم القرب.

لا أدري إلى أي درب يقودني هذا الأمر.. إنها مشاعر خرجت
عن حدود العقل حتى بتُّ كالمسحور.. أرى نفسي أهرب منها
وهي تلاحقتي، أصدها فتعود بألف شكل. لذلك كتبتُ إليك...
لا أريد أن يعرف أحدٌ اسمي، ولا أن أشكل ظلاً يُزعج مسارك.
أردت فقط أن أزيح هذا الثقل عن صدري، لعلّ الكتابة تمنحني
حريّة اللحظة، وتعيد إليّ شيئاً من اتزاني الضائع"...

طالبك المخلص.

*

حين فرغت من قراءة تلك السطور المرتجفة، اجتاحتها شعور
غريب يمزج بين الغضب والشفقة. رأيت في الكلمات قلباً
معدباً، لكنه قلبٌ أعمته العاطفة حتى لم يَرَ في الأستاذة سوى
وهجٍ يبتلع أطراف البصيرة.

لم يلمح المرأة التي تدافع عن احترامها كما يدافع المرء عن
آخر قلاع ذاته. وتساءلت: كيف تتحوّل الألفة التي تُبنى في
فضاء العلم إلى ذريعة لاقتحام حدود لا يحق لأحد تجاوزها؟

أعادت الرسالة إلى الطاولة بيد حافظتُ على ثباتها، ثم تناولت
الرسالة الثانية، فضتّ طرفها ببطءٍ خافت، كأنها تخشى أن
ينطلق منه صدى يُربك ما تبقى فيها من سكينه. قرأت:

”أستاذتي،

أعرف أنّ ما أفعله جنون، ويديا ترتعشان وأنا أكتب إليك. لستُ أهلاً للبوح، ولا يحقّ لي أن أحملك كلماتٍ كان يجب أن تظلّ حبيسةً صدري. لكنني لم أجد ملجأً ألوذ به سوى هذه الرسالة.

كلما دخلتِ القاعة، شعرتُ بأن شيئاً يندلق داخلي، طوفان لا يلين، كأن حضورك يضغط على قلبي حتى يختنق. لا أريد شيئاً منك، ولا أُرغب في الاقتراب، بل أخشى من نفسي أكثر مما أخاف من ردود أفعالك.

أردت فقط أن تصلك لوعتي، عسى أن أتخفّف من هذا الحصار..

طالبك الضائع.

*

رفعت رأسها عن الورقة، وقد تداخل في ملامحها مزيج من الأسى والمسؤولية. أدركت أنّ صاحب الرسائل ليس معتدياً بل تائه، وأن عليها أن تبقى ثابتة في مكانها:

أستاذة قبل أن تكون أي شيء آخر. منارة لا يحقّ للظلال أن تختلط بضوئها.

دخلت القاعة في اليوم التالي بخطى موزونة، كمن يضع قدمه فوق قرار استقرّ في داخله قبل أن يستقرّ على الأرض. وضعت

حقيبتها على الطاولة برفق مقصود، ثم رفعت بصرها إلى الطلاب جميعاً، نظرة تُشبه ميزاناً يزن الحزم والرحمة في آن.

قالت بصوت هادئ، لكنه شديد الوضوح:

"قبل أن نبدأ درس اليوم، فلنمنح أنفسنا لحظة صدق. القاعة ليست حجارة ومقاعد، بل فضاء نصنع فيه مجتمعاً صغيراً، تُبنى فيه الثقة كما تُبنى المعرفة". ساد الصمت، ذلك الصمت الذي يولد حين يشعر الجميع بأن كلمات غير عادية على وشك أن تُقال. "قد تختلط المشاعر أحياناً. ينشأ احترام، وربما إعجاب، وهذا طبيعي... إنساني. لكن الطبيعة لا تُبرر تجاوز الحدود". راحت الأسئلة تتوالى من أطراف الصف، وكانت تجيب بصبر يليق بمقامها: "المشاعر لا تُجرّم، لكننا نحاسب أفعالنا...".

الجامعة ليست مسرحاً للعاطفة، بل ساحة تصنع مستقبلكم". "من تعلق بأستاذته، فليحوّل هذا الانجذاب إلى رغبة في اكتساب العلم، لا إلى مطاردة ظلّ لا يخصّه". "والخطأ، أيّاً كان، لا نفضح صاحبه... نرشده. فصورة المرء أمام نفسه أعظم من أي عقوبة".

ثم ختمت حديثها بنبرة هادئة، لكنها قاطعة كحدّ السيف: "أعظم احترام تُظهره لمن تُعجب به... أن تحمي حدوده كما تحمي حدودك".

عادت إلى درسها بترتيب لا يتزعزع، كأنها تشيّد جسراً جديداً فوق ما تفتق في القاعة من صمت. وفي نهاية الحصة، حملت حقيباتها وغادرت بخطى ثابتة، لا تحمل انتصاراً على أحد، بل انتصاراً على العاصفة التي حاولت أن تقتحم جدار مهنتها. سارت باعتدادها المعهود، كأنها تُعلن بصمت أن الطريق الوحيد لحماية النور، هو أن يبقى مناره مشعاً، لا مرآة لقلوب الآخرين.

**



لم أستجب لدعوة صديقتي وزميلتي، أستاذة علم الاجتماع التي تشاركنا قاعات الجامعة وأعوامها، بوصفها احتفالاً عابراً ببلوغها الخمسين، بل لعلني أصغيت، من حيث لا أدري، إلى نداءٍ خافتٍ يتسلل من عمق زمنٍ مشترك، نداءٍ لا يستدعي الاستعادة بقدر ما يستحث التأمل، ولا يوقظ الحنين بقدر ما يضعنا على حافة السؤال.

كان الأمر أشبه بالوقوف عند عتبةٍ غير مرئية، نطلّ منها لا على ما انقضى، بل على ما تخلّق فينا عبر السنين، وعلى الصورة التي آل إليها حضورنا في مرايا العمر.

دخلت بيتها كما يدخل المرء ذاكرته، بخطى مترددة، كأن الأرض تحفظ وقع الأسئلة قبل وقع الأقدام، وبقلبٍ محمّلٍ بما لم يُقل أكثر مما هو مثقل بما فُقد.

كان البيت مضاءً بإضاءةٍ حميمية لا تفضح التفاصيل، بل تكتفي بالإيحاء إليها. صالون واسع تحوّل إلى ما يشبه ملتقى ثقافياً مصغراً، وجوه متجاورة، متقابلة، لكنها متباعدة في العمق، تلتقي عند المجاملات ثم تنسحب سريعاً إلى عزلتها الأنيقة. الضحكات خفيفة، مصقولة، تؤدّي بمهارة، لكنها بلا دفء، كأنها جزء من بروتوكول غير مكتوب.

في الركن الأبعد من الصالة، تحلّقت مجموعة من الأسماء الأدبية التي اعتادت أن ترى نفسها مرايا لبعضها البعض. انسحبوا من ضجيج الاحتفال، يقودهم زوجها هشام، الكاتب الذي بدا في ذروة احتفائه بذاته.

كان يوزّع نسخ مجموعته القصصية الجديدة كما تُوزّع الغنائم بعد معركةٍ رابحة.

لا يقدم كتاباً بقدر ما يعلن انتصاراً. يده واثقة، ابتسامته مصقولة بعناية، والغلاف بين أصابعه يبدو كمرآة إضافية تعكس صورته التي لا يملّ تأملها.

الكتاب يدور بين الأيدي لا ليقرأ، بل ليشهد على حضوره، على أنه هنا، في المركز، في الضوء.

هنّاته بدوري، وتقدّمت خطوة، كأنني سأنضم إلى دائرتهم، غير أن حدساً غامضاً أوقفني عند العتبة. شيء يشبه البرودة، أو نفوراً صامتاً لا اسم له. تساءلت:

هل لأنني امرأة؟ أم لأنني خارج سلّته المحكمة؟ أم لأن حضورني لا يضيف شيئاً إلى الصورة التي يحرص على تثبيتها لنفسه؟

انسحبت بهدوء إلى ركن الصديقات، حيث الحديث أكثر عفوية وأقل ادّعاءً، لكن أذني ظلّت معلقة هناك، كأن خيطاً غير مرئي يشدني إلى تلك الدائرة.

كانوا يتحدثون عن شاعرٍ عربي معاصر، اسمٌ ثقيل في تاريخ القصيدة الحديثة. غير أن هشام التقط الاسم كما يلتقط خصم في حلبه، وراح ينهال عليه بلغةٍ قاسية، أقرب إلى التشهير منها إلى النقد. قال ضاحكاً، ضحكة قصيرة حادة:

"شاعر؟! أي شاعر! صور مستهلكة، لغة بلا روح، مجرد ضجيج".

لم يسبق مثلاً، لم يقتبس بيتاً، لم يشر إلى نص. بدا رأيه مكتفياً بذاته، لا يحتاج إلى شاهد.

استفزني ذلك العنف الخالي من الحجة، ذلك التطاول الذي يتخفى في ثوب الثقة، فقلت من مكاني، بصوتٍ حاولت أن أجعله هادئاً:

"ألا يستحق رأي كهذا شاهداً؟ نصاً واحداً على الأقل؟ نحن نتحدث عن الشاعر ابن يوسف، عن تجربة أثرت في أجيال كاملة".

رمقني بنظرة عابرة، نظرة محايدة حدّ الإلغاء، ثم عاد إلى دائرته كأنني لم أكن. عندها أدركت أن هشام لا يناقش ليقنع، بل ليؤكد سيادته الرمزية.

كان كاتباً يخشى الضوء إذا سلط على غيره، فيفضل إطفاء المصابيح كلها.

كنت أعرف عنه أكثر مما يسمح به حضوره الواصل. خلف تلك القشرة اللامعة، كانت سيرة متشقة. هشام، الابن الأكبر لأبٍ غادر البيت باكراً، تاركاً زوجة وكومة أطفال دفعة واحدة في مواجهة الفقر والأسئلة. اضطر الفتى، وهو بالكاد يلامس المراهقة، إلى ترك المدرسة، ليحمل عبء الإعالة قبل أن يحمل شهادة. لم يكن الحرمان مادياً فحسب، بل عاطفياً أيضاً:

انكسار صورة الأب، غياب السند، والشعور المبكر بأن العالم مكان لا يمكن الوثوق به.

حين انتمى لاحقاً إلى حزب تقدّمي، لم يكن دخوله بوابة الأفكار بقدر ما كان بحثاً عن عائلة بديلة، عن اسمٍ يعلّقه على صدره ليغطي به هشاشته القديمة.

هناك، بين الجدران المزدهمة بالشعارات، اكتشف الكتب. لم يقرأ بدافع المتعة، بل بشراهة الجائع، كمن ينهش الورق ليعوّض حرماناً مبكراً من مقاعد الدراسة. كانت المعرفة درعه وسيفه معاً، تعويضاً عن نقصٍ ظلّ ينهشه بصمت.

ومع الزمن، تسلّل ذلك النقص إلى نرجسيته. صار حضوره ثقيلاً، وكلماته مدجّجة، كأن الدرع أثقل من الجسد الذي يحمله. في المنفى أحبّ امرأةً فهمت عقده قبل أن ترى قوته. فهمته أكثر مما يحتمل رجل اعتاد أن يكون مفهوماً على طريقتة فقط. أنجبا توأمين، فسكب فيهما كل ما ادّخره من حنانٍ مؤجّل، وترك الزوجة تتأكل بصمت على الهامش. كان قاسياً معها، يقلل من شأنها، يهينها، لا لشيء سوى أن نجاحها التعليمي كان مرآة صافية تفضح جرحه القديم، جرح الصبي الذي لم يكمل تعليمه وبقي أسير عقده.

في الندوات الثقافية، كان يمارس طقسه المفضّل:

يبدأ بالتحشيد الخفي، الهمس المسموم، وبتّ الارتباك في القاعة كما لو كان موسيقى خلفية لذاته المتضخّمة. وحين تتعثر ثقة شاعرٍ أو ترتجف كاتبة، كان يبتسم ابتسامة المنتصر. تلك لحظته الذهبية.

في إحدى الأمسيات، وبعد أن أنهت الأدبية قراءتها لمقاطع من روايتها الأخيرة، رفع يده كمن يرفع راية، ووقف بلا تمهيد، قائلاً:

"ما هذا؟ قرأت كتابك، فوجدته قصصاً كانت أمي وأمك ترويانها على عتبة الدار. هذا ليس أدباً... ثم لا أفهم لماذا تكتبين بصيغة الغائب". وأشار بسبابته:

"لاحظت أن ارتباكك وخوفك كان واضحاً في الرواية، ولهذا تكتبين هكذا. ثم إنك تكثرين الكلام، والكاتب، في رأيي، عليه أن يصمت، أن يستمع".

أنهى كلامه وجلس، منتظراً صدى الانتصار. بقيت الكاتبة هادئة، مبتسمة.

قالت بصوتٍ ثابت:

"هذا رأيك، وأنا أحترمه، رغم أنه لا يمت للنقد بصله. نحن لسنا في قاعة محاكمة ولا ساحة خصام". وبعد أن وقّعت نسخاً من روايتها، اقترب منها هشام معذراً بهمسٍ خجول:

"آسف، لم أقصد التعرّض لشخصك". ناولها كتابه إهداءً. شكرته، وقدمت له روايتها، لكنه قال بتكبير:

"لا، لا أحتاجها".

ابتسمت هذه المرّة بسخرية شفيفة، وتركت كتابه على الطاولة كما يُترك شيءٌ بلا أثر. التفتت إلى الآخرين الذين تحلقوا حولها لتحياتها والتعرف عليها.

بادلتهم التحية... ثم ودّعتهم.

وخلفها بقي هشام محاطاً بكلماته الجوفاء، وقد أدرك، متأخراً، أن نرجسيته بكل ضجيجها لم تنتزع منها حتى لحظة انكسار واحدة، وأن الصمت الذي غادرت به كان أعلى صوتاً من كل ما قاله.

**



عدتُ من عملي محمّلةً بيومٍ ثقيل، يومٍ لم يكن قاسياً في أحداثه بقدر ما كان مرهقاً في تراكمه، كأن التفاصيل الصغيرة اتفقت سرّاً على أن تختبر طاقة الاحتمال في الروح. كانت المدينة خلفي تضجّ، فيما كنت أبحث عن هدوئي في البيت، ذلك الملاذ الذي اعتاد أن يستقبلني بإيقاعٍ متوازن، لا صخب فيه ولا مفاجآت.

كان زياد قد سبقني، كما هي عادته. بيتنا لم يكن مجرد جدران وسقف، بل طقساً يومياً:

مائدة عشاء نتقاسم فوقها تعب النهار، وحديثاً يتسرب بهدوء بيننا، نعيد فيه ترتيب ما واجهناه، لا بوصفنا زوجين فقط، بل صديقين اختارا أن يسيرا جنباً إلى جنب. كنا نختلف أحياناً، نعم، لكن اختلافنا لم يكن صدامياً، بل تنوعاً في الرؤية، مرأتان متقابلتان تعكسان المشهد من زاويتين مختلفتين، دون أن تتحوّلا إلى شظايا. الاحترام كان لغتنا الأم، تلك التي لا نحتاج إلى شرح مفرداتها.

غير أنّ تلك الليلة انكسرت فيها العادة منذ اللحظة الأولى. استقبلني زياد بقبلته المعهودة، لكن شيئاً في حضوره بدا زائداً عن النص، فائضاً عن الاطمئنان. كان مشرق الوجه، تتلألأ ملامحه بفرح غير معلن، كأن الضوء اختار أن يقيم فيه مؤقتاً. شعرتُ بسرورٍ خفي، لكن ذلك الإشراق، حين يتجاوز حدّه، يوقظ الريبة.

بعض الأفراح، حين لا نعرف مصدرها، تصبح أسئلة معلقة.

لم يترك لي وقتاً طويلاً لأتساءل. بادرني بصوتٍ يحمل استعجال من يريد أن يتخلص من حملٍ ثقيل:

- إحدى معارفي القديمات اتصلت بي اليوم. منذ سنوات وهي تحاول الوصول إليّ، حتى حصلت أخيراً على رقمي من صديقي مشترك. وما إن حصلت عليه حتى اتصلت فوراً.

ابتسمتُ ابتسامةً مدروسةً، تلك التي تخفي أكثر مما تُظهر،
وقلت:

- هذا جميل... ويسعدني، حقاً. كيف جرى الحديث؟

راح يتحدث، وأنا أراقب كلماته كما يراقب المرء جدولاً يعرف
أن فيضانه ممكن:

- استعدنا أيامنا القديمة. حدثتني عن شوقها لتلك المرحلة،
عن ذكرياتٍ لا تزال تسكنها، عن زمنٍ تتمنى لو يعود.

قلت في داخلي:

تمهلي. ليس كل شوقٍ تهمة، وليس كل ذكرى فحاً. فقلت
بهدوء:

- آها! تفضل، واصل... أنا أستمع.

تنهد، وكأنه يستدعي عبثاً من قاع الذاكرة:

- حدثتني عن زوجها... رجل الدولة. قالت إن حياتها لم
تتحسن منذ افترقنا، بل ازدادت قسوة. ما زال أسير الشراب،
مهملاً لها ولأطفالهما، غائباً عنها وإن كان حاضراً باسمه
ومكانته. لا يراها امرأة، ولا يمنحها دفع الاعتراف أو
طمأنينة القرب.

صمت لحظة ثم تابع:

- قالت إنها لم تنس تلك الأيام، وإن اشتياقها لها يزداد مع الوقت.

كنت أستمع، لكن الكلمات بدأت تفقد حيادها، تحوّلت إلى ضلال تتكاثر في رأسي. رأيت امرأة محاصرة بوحدة اجتماعية خانقة، وزوجاً يتكئ على سلطته ليبرر غيابه، ورأيت في الوقت نفسه خيطاً رفيعاً يمتدّ من الماضي إلى الحاضر، خيطاً لو أهمل قد يصير حبلاً يلتفّ حول أعناق الجميع.

أردف زياد، بنبرةٍ شعرتُ أنها تبحث عن تطمينٍ غير معلن:

- أخبرتها أن كل شيءٍ تغير، وأني الآن متزوج، لديّ أولاد وزوجة. قلت لها إنني في المرة القادمة سأعرفك بها.

عند تلك الجملة، شعرتُ بحرارةٍ مفاجئة تسري في عروقي. لم يكن غضباً خالصاً، بل مزيجاً معقّداً من دهشةٍ وغيره وخوفٍ دفين لا أحبّ الاعتراف به.

نظرتُ إلى وجهه الهادئ، إلى طمأنينته التي بدت لي، في تلك اللحظة، كمن لا يدرك حجم الحجر الذي ألقاه في بركةٍ روعي الساكنة.

نهضتُ من مكاني قبل أن أكمل وجبتي.

أسندتُ كفي على المنضدة واقتربتُ منه، لا بانفعالٍ صاخب، بل بثقلٍ سؤالٍ ظلّ ينتظر اسمه:

- هل هي آمال؟

توقّفت لحظة، ثم أتبعته:

- آمال... تلك التي كنتَ على علاقةٍ بها من قبل؟ زوجة
السكرير، أم الأطفال، المرأة التي حدّثني عنها في بدايات
تعارفنا، بوصفها جزءاً من ماضيك؟

ساد صمتٌ كثيفٌ. صمتٌ لم يكن فراغاً، بل امتلاءً بكل ما لم
يُقل.

شعرتُ أن الماضي والحاضر يتزاحمان داخلي، وأن الحدود
بينهما تبدو أقلّ صلابة مما كنت أظن.

نظر إليّ طويلاً، وقد ارتدت الدهشة ملامحه. بدا كمن فوجئ
بأن الذاكرة ليست ملكه وحده، أو كمن ظنّ أن الزمن قد محا
ما أباحه ذات يوم. قال، بعد تردّدٍ خفيف:

- نعم... هي نفسها.

سقطت الكلمة في داخلي كحصاة في ماءٍ راكد، لم تُحدث
ضجيجاً، لكنها أربكت السطح كلّهُ.

قلت، بصوتٍ لم يكن حاداً، بل مكثّفاً:

- وماذا بعد؟ هل ستُبعث الذكريات لتُجدد عبر الشاشات؟ أم أنك تنوي أن تجعلني شاهدة، وربما شريكة، في فصلٍ لا يخصني؟

لمحتُ الوجع يمرّ سريعاً في عينيه. أدركتُ أن كلماتي أصابته في الصميم، فحَفَّتْ نبرتي دون أن أترجع:

- أنا لا أشكّ بك. أعرف أنك ربما تلقّيت الأمر بوصفه معرفةً قديمة، أو بدافع عطفٍ إنساني على امرأةٍ مسحوقة. لكن العطف، حين لا تحكمه الحدود، يتحوّل إلى التباس. وأنت مطالب بموقفٍ أوضح، وأكثر حسماً.

توقّفتُ قليلاً، ثم تابعتُ، كأنني أستخرج الكلام من عمقٍ لا يصل إليه الصوت بسهولة:

- أراها امرأة خانت زوجها من قبل، وربما لم تكن الخيانة مرّة واحدة. من يجرب الخيانة قد يألفها، وقد يجد لها دائماً مسوّغات.

فما الذي يجعلك تحترم امرأة كهذه؟ هل فكّرت في نواياها؟ في إلحاحها بعد كل هذه السنين؟ في معنى أن تعود الآن تحديداً؟

كنتُ أتكلّم، لكنني في الحقيقة كنت أختبره:

أختبر صورته أمام نفسه، قبل صورته أمامي.

- ثم... ما موقفك أنت؟ أمام ضميرك، أمام تاريخك، أمامي أنا؟

لم أستطع الإكمال. شعرتُ بأن الكلمات التالية ستأخذني إلى منطقة لا أريدها. انسحبتُ بهدوءٍ حاسم نحو مخدعي، فيما كان يحاول الاقتراب، تتعثرُ خطواته بحيرته، ويرتجف صوته باعتذارٍ لم أكن مستعدة لسماعه.

قلت، دون أن ألتفت:

- أحتاج أن أكون وحدي... أياماً.

وأغلقْتُ الباب.

لم يكن ذلك هروباً، بل عودةً إلى الذات. في تلك العزلة القصيرة، واجهتُ صورتني في مرآة العلاقة:

امرأة لا تطلب المستحيل، لكنها ترفض أن تكون هامشاً. أدركتُ أن الحب، مهما بدا ناضجاً، يظلُّ هشاً إن لم تحرسه المواقف الواضحة.

في الصباح، خرجتُ إلى عملي بلا تحية. لم يكن تجاهلاً، بل صمتاً مقصوداً، أحياناً يكون الصمت اللغة الوحيدة القادرة على قول كل شيء.

وحين عدتُ مساءً، وجدته ينتظرني.

كان التعب واضحاً عليه، لا تعب الجسد، بل إرهاق القرار. قال، بصوتٍ حاسم:

- انتهى الأمر. حذفْتُ رقمها، وقطعتُ أي خيطٍ يمكن أن يصلني بها.

نظرتُ إليه طويلاً. رأيتُ رجلاً أدرك، وإن متأخراً قليلاً، أن الماضي لا يُستدعى بلا ثمن، وأن بعض الأبواب يجب أن تبقى مغلقة احتراماً لما بُني بعدها.

قلت بهدوءٍ لا يخلو من صرامة:

- كان ينبغي أن يكون موقفك هكذا منذ البداية.

لم أضف شيئاً. فبعض الكلمات، حين تأتي في وقتها، تكون جسوراً.
وحين تتأخر، تتحوّل إلى اختبارات.

وفي تلك الليلة، لم نغلق باب امرأةٍ من الماضي فحسب، بل ثبتّنا حدود الحاضر، وأعدنا تعريف الوفاء لا بوصفه شعوراً عابراً، بل اختياراً واعياً، يُعاد اتخاذه كل يوم.

**



بعد عبور البحر من تركيا إلى اليونان، كما لو أن الأمواج فتحت لها باباً من زبد ومجهول، لم يكن الطريق إلى الحلم قد اكتمل بعد. كانت وجهتها القادمة ألبانيا، ومنها نحو وسط أوروبا التي طالما سكنت أحلامها مثل مدينة بعيدة تتلأأ خلف ضباب القدر. ترافق والدتها المسنة، تحملها كما تحمل الأرواح أثقالها الثمينة، بينما بقي شقيقها في اليونان، يغامر بالاستقرار حيث انتهى به الموج. اتفقوا مع مهرّب وصفه العابرون قبلاً

بأنه رجل لا يساوم على صدقه، ولا يخون الوعد، وحدد يوم الرحيل كمن يخطّ على الرمل موعداً مع المدى.

طيف... اسمها يشبه ملامحها الشابة، عابرة كنسمة، شفافة كظل في صباح شتوي. عيناها واسعتان، لكنهما محروستان بقلق رقيق، كأنهما نافذتان تطلان على حياة لا تزال تخشى الانكسار. التقيتها صدفة في محطة برلين، حين كنت أنتظر قطاري عائدة من رحلة انتداب قصيرة إلى جامعة برلين. تقدمت نحوي بخطوات بين الجراء والتردد، تسأل بالألمانية متعثرة عن وجهة القطار والرّصيف الصحيح. كان صوتها خافتاً، يتلمس الطريق في لغة لا تتقنها، قلت:

"يمكننا أن نتحدث العربية، إن كانت لغتك".

انفجرت أساريرها، كمن وجد في صحراء غربية جرعة ماء. ابتسمت، وبدأت الأسئلة تتدفق من شفيتها كما تتدفق الحكايات حين تجد من يصغي.

سألتني عن وجهتي، وحين علمت أنها ذات وجهتها تهل وجهها بشراً. سألتني عن اسمي وموطني، ثم بادلتني تعريفها بنفسها وأصلها.

كنا نتحدث، والوقت ينساب من بيننا مثل نهر هادئ، حتى دخل القطار، فاصطحبنا معه، لا كمسافرين فحسب، بل كمن يحمل في حقيبته بذور حكاية كانت قد زُرعت بالفعل في صمت المقاعد والمسافات، لبداية قصة لم تُكتب بعد.

حين توقّف القطار في محطة مدينتنا، كان صوت احتكاك العجلات بالسكك يصرخ مثل صفيّر طويل يودّع الرحلة. ارتجّ الرصيف تحت وقع الحديد، وانبعثت من العربات أنفاسٌ دافئة امتزجت بضباب الظهيرة البارد، فتشكّلت غلالة رقيقة كأنها ستارة تفصلنا عن بقية العالم. على الجدران العالية، ارتطمت أصداء أصوات المسافرين بأزيز الريح، وتردد النداء الميكانيكي باسم المحطة كصوتٍ بعيد يخرج من بطن آلة عجوز.

كانت طيف واقفة أمامي، يلفّها معطف داكن يضيق على جسدها النحيل، لم تكن تبتسم، لكن في عينيها بريق خافت يشبه شرارةً تقاوم العتمة.

بصوتٍ منخفض، أقرب إلى بوح على عتبة الوداع، قالت إنها ما تزال في النزل المخصّص للأجئيين، وأنها تسعى لإيجاد منزل بعدما حصلت على الإقامة في ألمانيا.

أضافت أنها تدرس الألمانية، بصبرٍ يشبه مشي المسافر في طريقٍ مغمور بالثلج.

ابتسمتُ لها وأنا أقاوم ذلك الشعور المزدوج بالراحة والحدز:

"ممتاز، أنتِ شابة طموحة، والمستقبل أمامك، أتمنى لك التوفيق".

مددت يدي لأصافحها وأغادر، لكنّها أوقفت حركتي بطلبِ مباحث:

"أيمكنني الحصول على رقم هاتفك؟"

ترددتُ، وأحسست للحظة أن بيني وبينها جداراً من هواءٍ ثقيل. قلت بسرعة، محاولةً التملّص:

"ربما في المرّة القادمة، فأنا الآن على عجلة من أمري"

لكنها تقدّمت خطوة، وكأنها تخترق الضباب بيننا. كانت نيرتها هذه المرّة أكثر قرباً ودفناً، وفيها حافّة خفيّة من القلق:

"وكيف ذلك؟ لقد التقينا صدفة، وبصراحة... أنا ارتحت لك. لاحظت أن لغتك جيدة، وربما سأحتاج مساعدتك".

أجبتها محاولة أن أبقى المسافة بيننا واقعية:

"في المراكز الاجتماعية هناك مترجمون، ويمكنهم مساعدتك إن احتجت، فهذا عملهم".

ترددت قليلاً، ثم امتدّت يدها لتقبض على يدي، قبضاً لا يعرف التردد، وفي عينيها التماعه هي مزيج من الرجاء والخوف. قالت بصوت يوشك أن ينكسر:

"لا أثق بالترجمين... وبصراحة، لقد وثقت بك. ثقي أنني لن أضايقك، ويمكنك في أي وقت أن ترفضني إذا شعرت أنني أثقل عليك. سأكون ممتنة لك في جميع الأحوال".

كان في كلماتها شيء يتجاوز الطلب العابر، كان نداء روح تبحث عن مأوى. عندها أعطيتها رقمي، وقلت:

"أتمنى أن أستطيع مساعدتك".

فاجأتني حين تقدمت قليلاً، وطبعت علي وجنتي قبلة امتنانٍ سريعة، خجولة، لكنها تركت دفناً مفاجئاً على جلدي. ارتبكت، ثم ابتسمت لها، ولوّحت مودّعة.

ظلّ وجهها أمامي، محاطاً بضباب المحطة وصوت القطار وهو يبتعد، كصورة من مشهد لن يغادر ذاكرتي، على أمل أن يصلني عنها يوماً خبرٌ سعيد يليق بعناد عينيها.

مرّت الأيام، وملامح طيف تراجعت في ذاكرتي كما يتراجع صدى بعيد بين جدران مدينة غريبة.

كنتُ قد طويتها في زاوية النسيان، لولا أنني حين رويت لزوجي قصتها وما دار بيننا، أبدى رغبة ملحّة في أن أمدّ لها يد العون، قائلاً:

"ربما هي حقاً تحتاج إليك، فلا تُغلق الباب قبل أن تطرقه".

ابتسمت بفتور، وفي داخلي صوت آخر يهمس: وماذا لو لم تكن تحتاج سوى شفقة عابرة لا أملك أن أقدمها؟ قلت له:

"سنترك الأمر حتى تتصل... وسنرى".

ثم تركت الأمر يذوب مع تفاصيل الحياة اليومية.

وفي صباح رماديّ الضوء، كان الهاتف يرنّ من رقم مجهول. تركته يتوقّف دون أن أجيب. لكن دقائق قليلة مضت، وإذا برسالة نصيّة تنبثق على الشاشة:

"أنا طيف... هل لي بمهاتفك والتحدث معك؟". توقّفت عند الاسم، كمن يلمح من بعيد ظلّ وجهٍ كان يظنّ أنه غاب. كتبت رداً قصيراً:

"أهلاً وسهلاً".

لم أكن قد أعدت ترتيب أفكاري حين جاء رنين الهاتف مرّة أخرى. ضغطت على زر الإجابة، فإذا بصوتها... كان فيه رجاءٌ خافت، كما لو أنها تقف على حافة جملة وتخشى أن تسقط. قالت:

"هل لي بلقائك هذا الأسبوع... إن أمكن؟".

سألتها بلهجة تحمل الحذر وأنا أزن الكلمات: "هل الأمر ضروري؟". أجابت دون تردد هذه المرّة:

"نعم، أرجوك... فأنا أعاني من آلام وأودّ الذهاب إلى الطبيبة النسائية".

تسلّل التعاطف إلى صوتي رغم محاولتي ضبطه:
 "أنا أفهم... ومتى الموعد؟ بإمكانني أن ألتقيك في عيادة الطبيبة، أليس هذا أفضل لكيينا؟".

تردّد صمت قصير، وكأنها تبتلع شيئاً بين الحلق والقلب، ثم جاء صوتها هادئاً لكنه ثابت، يحمل إصراراً هادئاً:
 "لا... أودّ أن ألتقيك قبلها، وكما تشائين وأينما تشائين".

تساءلت في داخلي: ما الذي تحتاج أن تقوله قبل الطبيب؟ وما هذا الإصرار الذي يلبسه صوتها مثل معطفٍ ثقيل في يومٍ بارد؟ لكنني قلت فقط:

"أين تقيمين؟ اكتبي العنوان، وسنلتقي خلال عطلة نهاية الأسبوع... ما رأيك؟".

انفرج صوتها فجأة، وكان حملاً هائلاً انزاح عن كتفيها، جاء صوتها مشبعاً براحةٍ مفاجئة:

"أنا ممتنة وشاكرة لك كثيراً... لقد أرحتِ عن كاهلي جبلاً كان يثقل أنفاسي".

وفي تلك اللحظة، شعرت أن كلماتها لم تكن مجرد شكرٍ عابر، بل كانت تنهيدة روحٍ وجدت فجأة من يلتقطها قبل أن تهوي.

في خلفية المشهد، كان صوت الريح يمرّ عبر نافذتي كأنه يحمل معه شيئاً من برد الغربية الذي يحيط بها، فيما ارتسم أمام عينيّ وجه طيف من جديد، هذه المرّة أكثر وضوحاً.

وجدتها واقفةً عند محطة الباص، كأنها تنتظر منذ دهور، وعيناها تلمعان بوميضٍ دافئٍ يشبه الرجاء الممزوج بالامتنان. ما إن صافحتني حتى ارتمت عليّ بعناقٍ حار، ذلك العناق الذي لا تكتفي فيه الأذرع بالتشابك، بل تشارك فيه الروح كلها. كان في حضنها اعتراف صامت بفضلٍ لم أقدمه إلا بدافع إنساني، لكنها تلقّته وكأنه شريان حياة. سألتها إن كانت قد وجدت سكناً، فأجابت بنبرة يكسوها شيء من الخيبة:

- الحصول على سكن لشخص واحد أمر صعب... أغلب الشقق معدّة للعائلات.

تردّد في خاطري سؤال ظلّ معلقاً في ذهني:

ألم تقل لي من قبل إنها حين غادرت اليونان اصطحبت والدتها معها؟

لكنني آثرت الصمت، كأنني أرجئ مواجهة ظلّ ما سيظهر لاحقاً. قالت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة:

- زميلتي في الغرفة ذهبت لزيارة أختها... سنكون وحدنا.

دخلتُ معها، فاستقبلتني رائحة البخور ممزوجةً بعبق القهوة المغلية، رائحةٌ لها هيبَةٌ هادئة، تمنح المكان قدسيةً لا تراها العين بل يلمسها القلب.

في منتصف الغرفة، طاولة مُهيأة بعناية للاستقبال: قالب كيك يلمع تحت ضوء النهار، أقداح شاي، فناجين قهوة صغيرة أنيقة، وأوانٍ تفيض بالمكسرات من كل صنف.

نزعت معطفي، فتناولته مني، وعلقته، ثم جلست بدعوة متكررة منها، وكأنها تخشى ألا أستقرّ في مقعدي. عيني وقعت على الصور المعلقة أمامي على الجدار، فتسمّرت عليها رغماً عني.

قطعت شرودي بصوتها:

- تشربين الشاي أولاً أم القهوة؟

- رائحة القهوة بالهيل مغرية جداً.

ابتسمت وسكبت لي فنجاناً برغوته الطازجة، بينما كانت الصور تواصل اختراق نظري، كأنها تحاول البوح بسرّ دفين. أشارت إلى إحداها، والدمع يثقل رموشها:

- هذه أُمي... هنا كنا صغاراً، وأنا الصغرى بين إخوتي الثلاثة.

قلت بلطف:

- اجلسي... لا داعي للبكاء.

جلست تمسح دموعها التي أصرت على الانهمار، فأحسست بحرج جعلني أضع كفي على كتفها، مؤاسيةً:

- كلنا نحمل أثقال الهموم، لكنّها جزء من نهر الحياة الذي لا يتوقف... وأنت ما زلتِ شابةً جميلةً، والبدايات ما زالت أمامك، بأفراحها، إن شاء الله.

بابتسامة باهتة قالت:

- أشعر أنّك قريبة مني كثيراً... أحببتك كما أحب أمي.

عندها اجتاحتني رغبة غامرة في احتضانها كما يُحتضن طفلاً فقد أمانه.

ثم أفرغت قلبها دفعة واحدة، بصوتٍ يخنتق بين شهقات البكاء:

- أمي ماتت في الطريق...

كان ذلك حين تركنا المهرّب ليلاً في بيتٍ مهجور، وسط غابة على الحدود الألبانية، بعد أن أخذ كل ما نملك. تفرّق الجمع، وبقيت مع أمي وشابين صديقين لأخي، رافقانا منذ البداية وساعداني في رعايتها. انتظرنا طويلاً أن يعود، لكن بدلاً من خطواته، سمعنا أصواتاً تتسلل من بين الأشجار... فهربنا.

توقفت لحظة، كأنها تعيد مشهداً محفوراً في ذاكرتها، ثم تابعت:

- أمي لم تستطع الجري... كان البرد ينهش عظامها، والجوع يثقل أنفاسها، والطريق وعرة، فحملها أحد الشابين على ظهره، أما الآخر فمضى بعيداً، يبحث عن نجاته. كانت أمي تعاني من السكر والضغط، وكانت تسعل بصوت مبجوح، تحاول أن تكتمه... توسلت إلينا مراراً أن نتركها ونهرب.

ثم شهقت، وعيناها تمتلئان بالذعر:

- كانت الغابة تمسك بأنفاسها، والليل يجرّ فوقها عباءته السوداء حين بدأت نقاط الضوء تلمع في البعيد، وتهتز مع وقع أقدام غامضة. كانت أضواء المصابيح تقترب كأعين متوحشة، حتى خرجوا من بين الأشجار فجأة، كأن رحم الظلام نفسه أنجبهم.

أسلحة طويلة في أيديهم، ورشاشات مشدودة إلى الأكتاف، لكن زيهم لم يكن زي شرطة... بل ملابس سوداء عادية، ووجوه مموهة بقماش أسود، كأنهم يخفون عنا حتى ملامح آدميتهم. لا يرى منهم سوى قبضة السلاح، وبرودة الحديد، ونصل الليل المسلط فوقنا. لم أحص عددهم، فقد التفوا حولنا كالأشباح، وأفواه الرشاشات تحدد في جمجمتك قبل عينيك. أشاروا بصمت قاس إلى الأرض، أمرونا أن نجلس ونشبك أيدينا خلف ظهورنا.

لكن أمي... أمي التي ورثت صلابة الجبال، لم تتحن لأمرهم. ارتفع صوتها من قلب الخوف، استغاثة وشتيمة في آن واحد، كأنها تمزق صدر الليل لتخرج منه.

اندفع أحدهم من خلفها، ضربها على ظهرها بقسوة، فترنحت، لكنها لم تسقط في روحها، بل أطلقت صرخة أشدّ حدة، فأطبق بعقب الرشاش على رأسها...

كانت الضربة ثقيلة كحكم إعدام، فتهاوت، والدم يسيل من شعرها كجدول أحمر يفترش وجهها والتراب.

صرخت باسمها، وركضت نحوها، لكن عاصفة من الألم انقضت عليّ بضربةٍ أو ضربات جعلت الأرض ترتطم بوجهي، ثم غاب عني كل شيء في عتمةٍ غليظة.

استيقظت على حفيف الفجر، ونشيج يتسلل إلى أذني. كان الألم يثقل كل عصب، وكل مفصل، حتى الهواء كان يؤلمني. التفتُ بصعوبة، فرأيت الشاب الذي كان معنا منكسراً، يلطم رأسه وينوح، وكأنه يحاول أن يوقظ روحه من الكابوس. همست أسأله:

"أين أمي؟" لم ينطق، بل أشار إلى مكانٍ قريب. هناك... كان جسدها مسجى على الأرض، مغطى بشالها الذي اعتادت أن تدفئ به كتفيها.

عند هذه اللحظة، انكسرت طيف... انكمش صوتها تحت وطأة
الدموع، وارتعشت يداها كأوراقٍ في ریحٍ باردة. قلت لها
برفق:

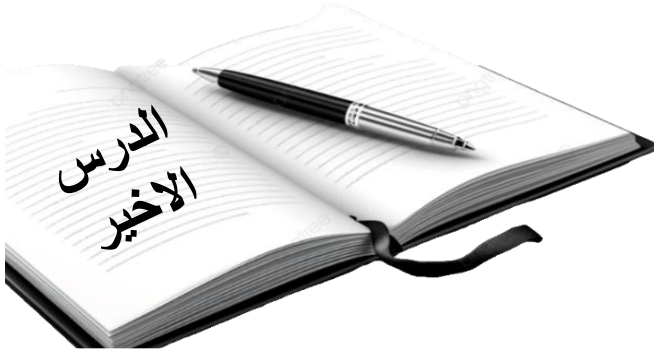
"كفى... خذي نفساً، لا داعي لأن تكلمي، فقط استريحي".

التقطت قدح الماء، ارتشفت منه كأنها تبتلع مرارة الجمر، ثم
قالت بصوتٍ مبحوح:

"لقد خسرت كل شيء... أمي، ونفسي، وحتى الشاب الذي
كنت أتشبت به لأفهم ما جرى... لم ينطق. وحين وصلنا
وقدّمنا طلب اللجوء، تبخر أثره.

ومنذ تسعة أشهر وأنا أعيش مع ألم لا يفارقني، عاجزة
ومتردة حتى عن دخول عيادة طبيب، حتى ولو كان معي
مترجم".

**



كانت شعلة من نورٍ دافئ، لا تحترق لثَّير، بل تتوهج حبًّا وإيمانًا برسالة التعليم. حضورها لم يكن يستدعي الهيبة بسطوة، بل يغرس الاحترام في القلوب كما يُغرس الحب في الأرض العطشى. لم تكن أستاذة تقف على منصة لتلقن، بل كانت تنزل إلى أعماق أرواح طلابها، تحادث عقولهم كما تحادث القلوب المرهفة، وتبني معهم جسور ثقة راسخة من ايمانها بان العلم حين يُزرع بالحب، يُثمر وعيًا لا يذبل.

وفي ختام إحدى محاضراتها، وبينما كانت تهمّ بمغادرة القاعة، استوقفتها صورة لا تُنسى:

حشد من الطالبات التفّ حول طاولة يتوسّطها صمت ثقيل، في قلبه جلست فاطمة...

تلك الطالبة الغامضة، التي لا يُرى منها سوى عيون تغزل الغموض من سواد حجابها الكثيف. كانت تبكي، بصمتٍ يكسر وقار اللحظة.

تريثت الأستاذة بالمغادرة سعياً منها لمعرفة ما يحدث وانتظرت حتى غادر جميع الطلاب الذكور، راحت تراقب الهمس الذي دار بين الطالبات كأنه لغة لا تُفهم... إشارات مشحونة بعواطف عميقة، لكنها عصية على الإدراك بالنسبة لها.

اقتربت بروية، سحبت كرسيّاً، وجلست قبالة فاطمة، تنظر إليها بعين أمٍ رؤوم. مدت يدها بلطف نحو يد فاطمة، علّها تواسيها أو تخفف عما يعصف بروحها، إلا أن فاطمة انتفضت، وانسحبت بجسدها إلى الخلف، وأدارت وجهها نحو الحائط، في رفضٍ صارخٍ لم تتعدّه الأستاذة من أيّ من طالباتها. وكأنها تقول بصمتٍ موجه:

"ابتعدي... لا تقتربي الآن."

بُهتت الأستاذة من ردّ الفعل الغريب، فطالما أحاطتها طالباتها بالمودة والتقدير والاحترام. لم يكن ذلك مألوفاً لديها. اعتراها قلق خفيّ بأنّها ربّما أساءت دون أن تدري. رفعت رأسها، ونظرت إليهن نظرة استفسار وحيرة، وقالت بصوت امتزج فيه الهدوء بالرجاء:

- هل يمكن لاحدكن ان تخبرني ما الذي يحدث هنا؟
لم يجب أحد...

أعدت السؤال، بنبرة أقرب إلى الاستغراب:

- هل أنا سبب ما تعانيه؟ هل أخطأت بشيء؟

ساد صمت ثقيل، كأن الزمن توقف للحظة، ثم خرج صوت خافت، متردد، لكنه واضح، من إحدى الطالبات:

- نعم، يا ست.

اتسعت عينا الاستاذة دهشة، وتقدمت نحوها بثبات:
- إذن... أخبريني، كيف ولماذا؟

ردت الطالبة بهمسة تشبه شهقة قلب:

- لأنها ببساطة تحبك، يا ست.

تعجبت الأستاذة من وقع الكلمات، وابتسمت ابتسامة امتزج فيها الذهول بشيء من الحنوّ، وقالت:

- وما الغرابة في ذلك؟ أنا أيضاً أحبها، وأحبكم جميعاً، وأحسب أنكم تبادلونني هذا الحب... أليس كذلك؟

لكن صوت النحيب ارتفع، كأنّ تلك العبارة لم تُسكّن الروح، بل زادت وجعها اشتعالاً.

شعرت أن البقاء في مثل هذا الحال سيزيد الموقف حرجاً.
أثرت الانسحاب بهدوء.

خطت نحو الباب بخطى متثاقلة، وما إن اجتازت عتبة القاعة،
حتى تبعتها إحداهن على استحياء، وهمست لها بصوت خافت،
كأنه تسأل خجل من جدار الصمت

- فاطمة... فاطمة تعشقتك، يا ست

- ماذا؟؟؟!

توقفت الاستاذة في مكانها، كأن الأرض تجمدت تحت قدميها،
وأصابها ذهول مباغت اقشعر له كامل بدنها.
راح عقلها يوزن هذا الاعتراف المفاجئ لإحدى طالباتها.
كانت الكلمات قليلة، لم تكن في الحسبان، لكنها حملت وراءها
عالمًا كاملاً من الارتباك والنتية.

لم يكن الأمر مجرد بوح عابر من طالبة، بل مسؤولية كبيرة
امامها تتطلب المجابهة والحسم..

في تلك اللحظة، بدا كل شيء حولها ساكناً، الزمن توقف،
الأصوات انكشفت.

ما سمعته هزّها من الأعماق، هزّ صورة العالم المنظم داخلها،
ذاك الذي لم يحسب يوماً أن يواجه مشهداً كهذا..

شعرت كأنها أسقطت فجأة في دوامة من الحيرة، تفتش عن معنى، عن حلّ، عن حدودٍ لهذا الذي لا حدود له.

تجولت في ردهات المعهد كمن يسير داخل كابوس غير مكتمل، حتى حطت بها الخواطر أمام قاعة المحاضرات من جديد.

أغمضت عينيها لبرهة، ثم دفعت الباب بخفة ودخلت. كان في القاعة بقايا من الدموع معلقة في الهواء، فأشارت بلطف إلى الطالبات بالانصراف، راغبة أن تبقى مع فاطمة وحدها.

جلست أمامها، وبلغة دافئة، قالت:

- فاطمة، هل نستطيع أن نتحدث كصديقتين؟

لا جواب! سوى شهقات متقطعة، وأنفاس تتصاعد من صدرٍ مثقل. كانت فاطمة تننّ بصمتٍ لا ينقصه الوضوح، فتابعت الأستاذة،

بصوت هادئ، يختلط فيه الحنان بالحزم، وقد أومأت برأسها بخفة كأنها تنسج من الكلمات أمانًا خفيف الظل:

- نعم، يا فاطمة، أنا أيضاً اودك، وأعتز بكِ كثيراً... أنتِ طالبة مجتهدة، تتركين أثركِ في النفوس..

ولكنك، تدركين تماماً ما الذي يعنيه ذلك. اليس كذلك؟؟

ثم صمتت قليلاً، قبل أن تتابع بنبرة يغلفها الحذر المشوب بالشفقة:

- أظنك الآن تحت وطأة ضغط كبير، ربّما تجاوز قدرتك على الاحتمال، ولهذا أراك واقفة وسط دوامة من مشاعر مضطربة، غائمة، لا شكل لها ولا ملامح. تشوش عاطفي كبير، نعم، لكنه مؤقت...

وأنا على يقين أنك قادرة على تجاوزه، إن أنت أمهلت نفسك قليلاً، وأعطيت لعقلك مساحة ليبصر الأشياء كما هي، لا كما تُملئها العاطفة.

ثم ابتسمت، ابتسامة دافئة فيها من الأمومة ما يسكب الطمأنينة في القلب، وقالت:

- ما رأيك أن تزورينا في نهاية هذا الأسبوع؟

تعرفين زوجي، الأستاذ طه، وتعرفين أولادي أيضاً... كلنا سنكون بانتظارك.

ستجدين عندنا فسحة من السكينة والهدوء بعيداً عن صخبك الداخلي، وبعيداً عن كل هذا الضجيج.

رقت عينا فاطمة بتردد، كأنها لم تصدق أن الحديث لم يكن لومًا قاسيًا أو عتابًا مؤلماً، بل رحمة.

نظرت إلى طالبتها، وقد بدأ شيء من الأمان يعود إلى ملامحها. ابتسمت الاستاذة في صمت، وقد شعرت بأن شيئاً ثقیلاً بدأ بالانزياح عن كاهلها..

انقطعت فاطمة عن الحضور، كأنها اختارت أن تختبئ عن كل العيون التي ألفتها.

مرّت الأيام الأولى على غيابها، مشوبة بالقلق والتساؤلات. سألت عنها الأستاذة، بعفويتها المعهودة واهتمامها الصادق، فجاءها الجواب خافتاً من بعض الطالبات:

"إنها مريضة، يا ست".

تمنّت لها الشفاء، ودعت طالباتها الى زيارتها والاطمئنان عليها، علّ في الزيارة دفناً يُعيد لفاطمة شيئاً من العافية:

انقضى الأسبوع الثاني ثم الثالث...

ولم يظهر لطيف فاطمة أثرٌ في ركن القاعة، ولا سُمع وقع خطواتها بين الصفوف. ظلّ الباب موصداً، وكرسيها خالياً، ينعى الغياب بصمته الثقيل.

أما زميلاتها، فكانت قلوبهن تترقّب عودتها بصمتٍ مشوبٍ بالرجاء... لكنها لم تعد أبداً. وكان هذا، دون أن يدرك أحد، درسها الأخير..

**



عن قصة

ان شاء الله يا استاذة

** من بصيرة الروح الى تبصر الحجة.. ملء جناحيين من
رخام الكلام وفضاء العزيمة.. سعيًا لترميم ما نخرته الغواية..
وما بعثره الخراب من اشلاء في الأرواح الطرية لشبابنا: حين
استبدل التفكير بالتلقين.. والبحث المتأني بالخطب البلهاء..
والتبصر بالتحريض، والتثبت بفتاوى الانحطاط

شكرا لما تتحفينا به من موضوعات على حافة السؤال دائماً

الشاعر طارق الحلفي

** الاستاذة القديرة سعاد الراعي.. نص حمل الكثير من المعاني خصوصا ما يخص المرأة ويترتب عليها، وكأنها الفتنة بحد ذاتها وهي فقط تقع عليها المسؤولية في كل محرم ومحضور، أما الرجل..

فكما قال الشاعر نزار قباني:

يعود اخي من الماخور عند الفجر سكرانا..

يعود وكأنه السلطانا..

من سماه سلطانا؟

ويبقى في عيون الأهل أجملنا وأغلانا الخ ...

اما المرأة فهي وحدها العورة وتحمل وزر الرجل بل

المجتمع بأكمله..

تحية لك أستاذة في تناولك مثل هكذا مواضيع

القاصة نضال البديري

عن قصة

ذاكرة في ظلال الخيال

** نصوص هادئة ومتأنية. وتعيد الى الذهن ما سماه قصي العسكر الواقعية المستنيرة. وهو اسم مشتق برأبي مما سماه لوكاتش الواقعية الجديدة. نص ملتزم بدون شعارات ولا تهريج.

الكاتب والناقد صالح الرزوق

** الوحدة التي يخشاها الكثيرون في بلاد الغربية كان من أبرز ما تناولته هذه القصة المؤثرة. وعجز الجسد عن تأدية وظائفه الطبيعية نتيجة للتقدم في السن كان هو الآخر موضوعا شغل اهتمام القاصة، فوصفته بأسلوب يشي يتمكن ومهارة في السرد القصصي أما اللغة فكانت مننقاة بعناية ومؤثرة ،خالية من التصنع والتكلف تتوالى مفرداتها بتلقائية وانسيابية. ولعل ما يلفت النظر في هذا النص القصصي الطويل هو أنّ القاصة سعاد الراعي استحضرت مصيرها المحتوم من خلال وصفها للحالة التي انتهت اليها أستاذتها مارياء، التي اختلطت عليها الامور بسبب ضعف الذاكرة، الذي جعلها تعيش احداثا من الزمن الماضي مرت وانتهت وكأنها أحداث تعيشها في اللحظة الراهنة وهذا ما عبرت عنه الكاتبة في نهاية القصة بعبارة مؤثرة جدا:

(وفي لحظةٍ خاطفة، أحسستُ أنني أنا نفسي مارياء، جسدٌ حاضر، وروحٌ تتسرب من بين أصابعه. رأيتُني أودع العالم وأنا بعدُ واقفة، أراقب من بعيد حياتي وهي تنسلّ مني ببطء، أصدقاءً، ذكرياتٍ، أماكن، وجوهًا عزيزة. أحسستُ أنني أنا الغريبة عن نفسي، غريبة عن الأسماء التي تتردد في رأسي كأنها تعود لشخصٍ آخر عاش مكاني ذات يوم)

من اروغ ما قرأت من نصوص قصصية للأديبة سعاد الراعي

الشاعر جميل حسين الساعدي

**** نص خال من الشوائب لا يبدي جماله إلا بالتمعن وإعادة
القراءة مرات كثيرة دام الإبداع والتميز**

الشاعر محمد السميعي

**** قصة مذهلة لا تقدر على صياغتها الا كاتبة كبيرة
أحبيك على هذا النفس الإبداعي الرشيق..
لقد كتبت نهاياتنا من خلال نهاية استاذتك...**

بوركت لهذه الروعة...

الاديب والشاعر قصي الشيخ عسكر

** الكاتبة والروائية المبدعة والناقدة المتميزة الأخت سعاد الراعي

نصُّ يلامس هشاشة الروح حين تترك وحيدة في مواجهة الغياب ويجعل من الوفاء ضوءاً يقاوم العتمة بلغة شفافة كدمعة مؤجلة..

تنسج الكاتبة رثاء نبيلاً للكرامة وتذكرنا أن النسيان هو اليتيم الوديع في حياة الانسان.

اللغة هنا ليست أداة سرد، بل كائن يتنفس، يوجع ويضمّد في آن واحد تهمس ولا تصرخ وتترك على القلب أثر ملامسة لا تنسى..

"ذاكرة في ظلال الغياب" ليست قصة تروى، بل صلاة هادئة على روح الوفاء ورثاء لكرامة تدبّل في آخر المنافي.

شكراً لكل هذا العطاء النبيل

الشاعر زياد السامرائي

قصة تختصر وتختزن الكثير من المعاني الإنسانية الواقعية. واقعية اجتماعية نعيشها وتدور أمامنا حركة تنبض بالحياة وقساوة نهاية الإنسان في أواخر العمر. السرد فيها مثير يشد المتلقي بإحكام ليتابعها حتى الخاتمة. السرد فيها لا يعتمد على أحداث وحركة، وإنما الحركة فيها هي حركة مشاعر الراوية التي عاشت الحالة الإنسانية بعمق ومحبة، لتقدم لنا صورة من الواقع، والتي قد تحدث لنا جميعاً يوماً، ونحن نقترّب من محطة قطار العمر الأخيرة. وهي مزيج من السيرة الذاتية، في إهاب فنّ القصة، دون أن تتداخل لتختلط، وإنما انسابت محكمة في فنّ القصة بكلّ تفاصيلها، سرداً ولغةً وحبكة ومثانة، دالة على أنّ القاصّة ذات أرضية فنية كبيرة، كما نعرفها. دام الإبداع الكبير الراقي.

الشاعر عبد الستار نورعلي

** نص سردي شفاف بروحه الانسانية الفياضة في عطرها الجميل، المناسبة بتدفق رائع، وبراعة في خلق الحدث... المؤثر بهذا الشكل المبدع الذي يعصر قلب القارئ بالتأثير موجه، في تدفق الاحداث الحقيقية في زمن الغربة منذ بدايتها، وروح الوفاء الجميل، للذين وضعوا بصمتهم على جدران القلب، والوفاء الانساني لهم، كأنه واجب اخلاقي، هذا يكشف عن معدن الاخلاق والتربية والسلوك الراقي، الذي يجعل الآخر يعترف به فرحاً وشوقاً أو يترك اثرأ محبباً ("أنت وحدك من لم يخذلني ويحرص على زيارتي، بوفاءٍ يفوق حتى وفاء أبنائي.") وكذلك النظرة الحكيمة لمديات قطار العمر حين يقترب من محطته الاخيرة.

...

ان مأساة الانسان اكمن في ان يتخلى عنه الجميع بما فيهم الدولة، وكذلك اهله وخاصة أبنائها، ان يترك او يرمى في دار العجزة حتى يرحل الى العالم الابدي الاخر. وأكثر مأساة ان ينتهي حال المبدع كان في زمنه شعلة من الابداع والنشاط والجهد.

...

حدث سردي موجه، ليس بأنه يذكر ايام الغربة خارج الوطن، ولا الاشخاص الذين قدموا التضامن والاسناد والتعاطف، ولكن الجوهر، حين ينتهي الانسان الى هذا المطاف، وهو يقترب من المحطة الاخيرة من عمره، وقد تخلى عنه الجميع حتى الابناء، ان يرمى في دور العجزة يلوك الالم والوجع

والاهمال بهذا الشكل غير الانساني، براعتكم مدهشة في
صياغة وابتكار الحدث السردي بروحه الانسانية بهذا الفيض
من الفيضان الطافح والموجع.

تحياتي

الناقد جمعة عبد الله

وذاكرة الغياب لها ظلالُ
تُلازمننا وللمضنى مألُ

ومن وجع نعودُ لها لننسى
هي الخمرُ المعتقدُ الحلالُ

اطيب تمنياتي لك سيدتي

الشاعر الحاج عطا الحاج يوسف منصور

عن قصة

عن دوما يكون الفكر ثم اللهم

نعم والله صحيح ما طرحته استاذة /سعاد الراعي
اثنان ثالثهما الفكر... فكل شيء مرتبط بالدين يعتبرونه
محرم الخوض فيه.. يريدون منا أن نظل مغفلين تحت عمائمهم
ولحاهم..

قصة واقعية معبرة

دام الإبداع والألق..

الشاعر محمد السميعي

كلامك يا سعادُ به إفادَةٌ
وفي الخلواتِ تنكسرُ الإرادةُ

هي الشهواتُ للناسِ امتحانُ
عليها ان تكون لنا القيادةُ

وشيطانُ الهوى ما زال فينا
وكم من خلوةٍ كانت مرادةُ

تحياتي لك ..

أرجو أن تكون فكرتي
قد وصلت اليك بالصورة أقصدها

الشاعر الحاج عطا الحاج يوسف منصور

هذه القصة، بجزالة لغتها، وذكاء بنائها، وجرأتها الفكرية،
تمثل نداءً تربويًا عميقًا لشبابنا الذي يُقاد أحيانًا من
منابر الزيف لا من مشكاة الوعي. وهي تضع، بمهارة أدبية،
السؤال في قلب النار:

أيهما ثالثنا؟ شيطان النص المقطوع،
أم فكر السياق المضيء؟

الشاعر طارق الحلفي

شكرا لسيدة الإبداع سعاد الراعي لقصتها الموسومة " عندما
يكون الفكر ثالثهم" وعلى هذه الكلمات المجنحة التي تأخذ
القارئ الى آفاق جديده معطره بعطر الياسمين ومحلاة بالعلم
واليقين شكرا مره اخرى لبننت الرافدين الأصيلة كأصالة نخيل
العراق...

لك... المزيد من هذا التوهج الفكري الجميل

الكاتب غريب دوحى ناصر

سرد شفاف متناسق في تدفقه لكنه بدأ بذكريات الماضي وانتهى الى النقاش الفكري في أصعب الاشياء الحساسة في الدين ومقولاته، وخاصة مسألة الحرام والحلال، كل الاديان السماوية تحمل الايجاب والسلب بصدد تفسير وتحليل مقولاته الفكرية، تحمل تفسيرات مختلفة حسب عقلية وثقافة الشخص، من السلفية الاسلامية وفكرها المنغلق، تجاوزه الزمن والعصر، الى الانفتاح الثقافي والفكري، الذي يضع المقولات الدينية وأحاديثها في مجهر التحليل المنطقي والتفسير العقلي المقبول. وحتى هذا الحديث المنسوب الى الرسول الكريم، ما اجتمع رجل وامرأة كان الشيطان ثالثهما، يحمل الايجاب والسلب في التحليل والتفسير، من العقلية السلفية في تفسيراتها المعروفة التي تناقض الواقع والحقيقة، الى التفسير ربما المقصود بالشيطان هو شيطان العقل، واتذكر مقولة من لينين يقول: إذا اردت ان تجرب الرجل ضعه مع امرأة. هذه الاطروحات الفكرية تحتاج الى شجاعة وجرأة في طرحها ونقاشها

الناقد جمعة عبد الله

عن قصته

حلم لم يواد

مُنَى عاشت وطار بها الخيالُ
وكانت في تصرفها يُقالُ

هو الطيشُ الذي يعرفون فتاةً
وفي التجريبِ ينكشف الضلالُ

وامّا زوجها أغراهُ حسنٌ
فأخفى عيبهُ وهنا السؤالُ

لعبد القادر الاستاذ أنى
وإن الامر معناه احتيالُ

لقد كانت قصتك من صميم الواقع الذي اعرفه في مجتمعنا

الشاعر الحاج عطا الحاج يوسف منصور

عن قصة

في حضرة الاستاذة

أدركت المشهد يا سيدتي بلغة متأنية، تلتقط التفاصيل الصغيرة التي لا يراها إلا من يكتب بعين القلب.

لك ألف تحية، وألف امتنان على هذا النسغ الجميل.

الكاتب إبراهيم برسي

قصة أسرة، تنسج بخيوط من نورٍ خفيٍّ وظلالٍ عميقة! إنها بحقّ مرآة تعكس جوانب إنسانية شتى، وتلامس قضايا تتردد أصدائها في أروقة مجتمعاتنا العربية المعاصرة بصدى خاص.

ففي مجتمعات قد تكتنف فيها الأعراف والتقاليد بعض المشاعر وتجعل التعبير عنها محفوفاً بخطر ويتطلب الحذر، يطرح النص تساؤلات ضمنية حول حرية التعبير العاطفي، وحدود العلاقة بين الطالب والأستاذ، وكيفية التعامل مع المشاعر الإنسانية المعقدة بوعي ومسؤولية.

المشهد المحوري لبكاء فاطمة الصامت وسط الهمسات المبهمة.. يرسم لوحة درامية بامتياز، محملاً بتوتر نفسي يشف عن عوالم داخلية مضطربة.

ان تناول هذا الامر يُظهر جرأة نقدية نادرة لدى الكاتبة سعاد الراعي. إذ تحوّل الفضاء المدرسي، رمز النظام إلى ساحةٍ للاضطراب العاطفي.

النهاية المفتوحة ("درسها الأخير") تترك القارئ في صدمةٍ تأويلية، كأنها إشارة إلى أن بعض الدروس لا تُنسى، بل تُغيّب قسرًا .

الشاعر طارق الحلفي

عن قصة

عقدة كاتب

مضى النقد الاصيلُ وصار يعني
مجاملةً بها مَنْ شاءَ يبني

عليها ما يقولُ لأجلِ زُلفي
فلا صدقًا حوى لفحوى ليُغني

أحسنتِ وابدعتِ في تشخيص
هذه الحالة المرضية المتفشية في
وسطنا الادبي.

الشاعر الحاج عطا الحاج يوسف منصور

** نص سردي بليغ الدلالة وعميق المعنى والمغزى، ينزل الى العظم، وهو يضرب عصفورين بحجر واحد، المعنى الاول المشتركات الحقيقية بين الأصدقاء، في علاقتهم المصداقية، الصادقة أو الكاذبة، في المشترك الثقافي والنفسي والسيكولوجي، والمعنى الاخر الاله في هذه التحفة السردية الجادة والنافعة، في رؤيتها الفكرية والتعبيرية، ترسم اللوحة الثقافية والادبية السائدة والمتصدرة المشهد الثقافي والأدبي اليوم،

ما تشهده الساحة العامة من حقيقة مرة كالحنظل، في المشهد العام أو في المسرح الأدبي والثقافي، عبارة عن مهازل سفيه في غث الكلام وثرثرته، والطامة الكبرى يعنون باسم اشكال الادب زوراً (قصة، قصيدة، رواية، او اشكال ادبية اخرى). نجد لهذه ضحالة الادب السفيه في غثيانه، نجد الحفاوة والتكريم والتبجيل في هذه المهرجانات الأدبية، والندوات والمحاضرات والملتقيات الادبية والثقافة، حتى الحفاوة والاحتضان من وسائل الاعلام والنشر، كأن هناك هدف مبيت بشكل مباشر وغير المباشرة تبجيل واعلاء شأن الثقافة الضحلة والسفيه، كأن هناك هدف مبيت تضليل العقل وغسل الادمغة بالأدب السفيه والهزيل، ومحاربة الادب الجاد والرصين، كأن هناك نهج في تضليل العقل وابعاده عن مسارات الواقع الحقيقي، بإعلاء الواقع الضحل والمشوه، وهذا النهج هو السائد

والمسيطر والمدعوم، تلعب به الاخوانيات والمجاملات والفئوية والحزبية والمناطقية، يجتمعون موحدين، من اجل ارسى اسس الثقافة الضحلة والهزيلة، نجد ما يطبع وما يصدر وما ينشر الالاف، بالكم الهائل والمدعوم بشكل مباشر وغير مباشر وهو عبارة عن (دوخة الرأس / او شليلة وضائع رأس الخيط، ما تعرف راسه من رجليه) وما يضخم له من دعم عبارة عن سفاهات مضحكة في السيرك التهريجي ما نراه اليوم، ولكن رغم التهليل والتضخيم الهائل، لا يمكن ان يقارن بالأدب الجاد والملتزم، رواية او قصة او قصيدة احسن من الالف من هذا النوع في ثريد الكلام وثرثرته، تبقى الجودة هي الضوء المشع في ظلام الكم الهائل السفيه، حتى لو حصل هذا النوع الرديء في ثريد الكلام على الجوائز والتكريم والحفاوة، لا يساوي شيئاً ولا يمكن المقارنة بين وردة حقيقية فواحة بعطر الريحان مع وردة بلاستيكية، أو لا يمكن المساواة مع ماء نقي صافي مع برك الامطار الاسنة الراكدة. ولكن لا يمكن غض النظر بأن هناك أطراف متنفذة تحاول دعم هذا الكم من الادب الهزيل، بالضد من الادب الملتزم النوعي، هي محاولة تغييب العقل وعسل الادمغة بسفاهة هذا الادب السفيه والتافه والمضلل، لكن رغم الدعم الكبير، يبقى الادب الملتزم كجوهرة مضيئة كالؤلؤ، لا يمكن مقارنته مع الادب الضحل.

الناقد جمعة عبد الله

**** نص قصصي يتحدث عن ظاهرة شائعة في الأوساط الأدبية والفنية، والتي لا تخلو من مدّعين ينقصهم الإبداع فيسكنهم الحسد، فإذا بهم يتطاولون على الآخرين ويهاجمونهم بأحكام مسبقة، نابعة عن عقد نقص مستفحلة لا يمكنهم الخلاص منها**

هذا النص نموذج حي من القصص الواقعي وقد أبدعت القاصة والروائية سعاد الراعي في نقل تفاصيل المشهد بلغتها الخالية من التصنع

الى مزيد من الإبداع

الشاعر جميل حسين الساعدي

** اختي الكاتبة السيدة سعاد الراعي لك مني التحية والاحترام. بعد الكلام الذي دونه الزملاء والسادة اصحاب الرأي أجد صعوبة في ان ازيد عليه غير اني اطلب السماح من حضرتك كي اضيف التالي:

اذكر سنوات دراستي مادة الأدب ليس بلغتي الام، حيث ردد المحاضر عبارة- هل نجح الكاتب بطرح سؤال له انعكاساته في المجتمع؟ هل صور الكاتب شخصية انموذج لبشر احياء يعيشون بيننا؟ إذا ما طرحت هذه الاسئلة سيدتي على قراء قصتك، سيأتي الرد ايجابي.

نعم سيدتي هذا الكاتب هشام نراه في دمشق، وفي بغداد، وفي مجتمعاتنا العربية، حتى أننا نحتك بهكذا انموذج كل اسبوع. هذه قصة ناجحة.

لك بالغ احترامي سيدتي.

الاديب والشاعر اسماعيل مكارم

عن قصة

الماضي يطرق بابي

** أستاذتنا الادبية الراقية:

الفرار تجاه الماضي له أسباب أهمها الحاضر نفسه.. أقصد حاضر الإنسان من مشاعر السخط أو الغضب أو العجز الخ الخ... ويحدث هذا كثيرا في حياة الفرد أو حتى الجماعة... ألا ترين كيف نحن العرب كأمة نُغرق في استحضار الماضي وأمجاده وحتى أسقامه وآلامه... وما ذاك إلا لعجز بنا عن مجاراة الحاضر، لكنّ الماضي ليس عنده الحلّ.. ليس لشحّ به ولكن لأن أي حلّ من قبله لن يكون حلّ، وهذا تماما ما تدركه بطلّة قصّتك وما توصلّ إليه بطل قصّتك ولو متأخرا...

شكرا شكرا من القلب على ما أتحتنا به من خلا هذا العمل
الأدبي الرفيع

الاديب والشاعر أسامة محمد صالح زامل

لماضٍ قد يكونُ ولا يكونُ
له التأثيرُ في بعض النفوسِ

ولكن غيرَةً زادتُ فبانَتْ
فحالتُ دون اتمام الجلوسِ

وأجملُ ما ختمتِ به ختامُ
تجلى فيه نافلةُ الدروسِ

تحياتي... دُمتِ ودامتِ اشراقتكِ

الشاعر الحاج عطا الحاج يوسف منصور

** الحوار (لُغَةً وإيماءً وإشارةً) هو الصانع الفعلي لهذا
المشهد الدرامي المتأرجح في غزارته الوجدانية وانفعالاته
العاطفية مع الاحتفاظ بالثبات السلوكي وصولاً إلى نزع
فتيل التوتر والانهيبار.

الشاعر مصطفى علي

**** الحدث السردى يحمل صورتين او لوحتين من الواقع الحقيقي والفعلي، بشكل صادق وصريح، الصورة الاولى، تمثل الانسجام والوفاق في أحلي هيئته، هي العلاقة بين زوجين يحملان سمات مشتركة في الافراح والاحزان يمثلان الانسجام الروحي وادبي في أحلي صورته، مما يخفف اتعاب واعباء العمل، وارهاق الحياة، وان الانسان كتلة من العواطف والانفعالات، بشكل صادق وصريح، وان الانسان مرتبط في علاقات وذكريات قديمة، يحاول معرفتها بعد سنين طويلة من الغياب، ان الصورة الاولى او اللوحة الحياتية الاولى، هي الاصرار على مجارة حياة في واقعتها، وهذا يؤدي الى استمرارها بشكل طبيعي وطيب وراضٍ بين الطرفين ...**

اما الصورة الثانية او اللوحة الثانية رغم انها واقعية من الواقع الفعلي، لكنها سيئة جداً، ولكنها تخص حالة اجتماعية شرقية عامة وعراقية تملك خصوصيتها (لا اعم على الجميع ولكن البعض) وهي حينما يتولى الرجل او الزوج موقعاً مهماً في الدولة يتغير كلياً في طبعه وسلوكه وعلاقاته، حتى مع أقرب الناس اليه (الزوجة) ينقلب بدرجة 180% درجة الى الاسوأ، عندها يكون البيت يحتضن غريبين في بيت واحد، يشب الخلاف والشقاق والسلوك السوي الناضج. هذه لوحات الواقع الفعلي، مثل اصابع اليد الواحدة غير متساوية. تحياتي

الناقد جمعة عبد الله

عن قصة

طيف على حدود الهمم

** الأستاذة سعاد الراعي المبدعة

القصة تترك أثرًا عاطفيًا قويًا، وتجعل القارئ يتوقف أمام المعاناة الحقيقية للاجئين، بينما يبرز جانب الأمل والإنسانية من خلال التقاء طيف بالراوية، مما يضيف بعدًا دافئًا وسط القسوة التي عاشتها.

احسنت

الأديبة والشاعرة رائدة جرجيس

** الاديبة والناقدة المرموقة

قصة شفافة وممتعة في سرد الحدث السردى بهذا التشويق المرهف، هذه القصة الواقعية من آلاف قصص الهجرة واللاجئين، الذين دفعتهم الظروف القاهرة والصعبة، ان يخاطرون في حياتهم في مجازفة محفوفة بالمحاط الصعبة، وخاصة العبور من تركيا الى اليونان عبر بحر ايجه، هذا البحر اسميه البحر المجنون في المعاشة عن قرب، اذ خطف آلاف المهاجرين، أصبحوا شهية حيتان البحر، وهو يضم أكبر مقبرة في اعماقه، هي لعبة بين الحياة والموت، والوصول الى بلدان الهجرة مثل المانيا،

اعتبرها شجاعة وحظ كبير، وحتى الوصول لا يعني بأن المتاعب والصعوبات انتهت، بل تستمر لان فترة قبول طلب اللجوء يستغرق فترة طويلة يصاحبها القلق والتوجس والمخاوف من الرفض.

اشد على روحكم الطيبة، هذا معيار الروح الانسانية عملاً وفعلياً، وليس قولاً عابراً بلا رصيد.

الناقد جمعة عبد الله

وقائع لا يُصورُها الخيالُ
لأحداثٍ مضتْ أو لا تزالُ

لها ذكرى مرارتها ستبقى
لأجيالٍ وقد صدق المقالُ

وما طيفٌ سوى ذكرى أناسٍ
تقلب حالهم إذ جدَّ حالُ

هي الدنيا نعيشُ بها ونرجو
وأخرها الى الباري المألُ

تحياتي دمتِ ودامتِ اشراقتك

الشاعر الحاج عطا الحاج يوسف منصور

القاصة العراقية المتألقة والمتميزة والناقدة الكبيرة

الروعة تكتب نفسها
دام الإبداع والتميز

الشاعر حمد السميعي

نساءنا باسطات اقدارهن وهن يخضن زبد الضياع توطئة
للهداية..

وحوافر الشظف امتطاء لترف التيه.. وهن يضممن اصابعهن
على شفق من حكايا حروب او عبث نكبة.. ان نقاش طيف الذي
ذرته رياح قصتك، ليس سوى ظلاً منكسراً على حافة مياه
البحار التي خاضتها وسواها.. ونواعير التجارب التي رافقتها
وغيرها من هداهد بلداننا..

الشاعر طارق الحلفي

**** القاصة والناقدة الحاذقة المبدعة سعاد الراعي**

طيف ليست شخصية عابرة بل صورة مكثفة عن الآلاف
الأرواح التي انهكتها الحروب والمنافي

الحكاية تضع القارئ أمام مسؤولية الاصغاء لما وراء
الخبر... الم.. فقدان.. حاجة صادقة للدفع والاحتواء.
قصتك سيدتي تذكير بأن الهجرة ليست مجرد عبور حدود.. بل
مواجهة حتمية مع العدم ذاته.

سعاد الراعي.. تضع طيف وثيقة احتجاج للضمير الإنساني
الحي أيضا.

تحياتي الطيبة أيتها الإنسانية المبدعة

الشاعر زياد السامرائي

عن قصة

II درس الأخير

** أدرتِ المشهد يا سيدتي بلغةٍ متأنية، تلتقط التفاصيل الصغيرة التي لا يراها إلا مَنْ يكتب بعين القلب.

لكِ ألف تحية،
وألف امتنان على هذا النسغ الجميل

الكاتب ابراهيم برسي

قصة أسرة، تنسج بخيوط من نورٍ خفيٍّ وظلالٍ عميقة! إنها بحقّ مرآة تعكس جوانب إنسانية شتى، وتلامس قضايا تتردد أصدائها في أروقة مجتمعاتنا العربية المعاصرة بصدى خاص.

ففي مجتمعات قد تكتنف فيها الأعراف والتقاليد بعض المشاعر وتجعل التعبير عنها محفوفاً بخطر ويتطلب الحذر، يطرح النص تساؤلات ضمنية حول حرية التعبير العاطفي، وحدود العلاقة بين الطالب والأستاذ، وكيفية التعامل مع المشاعر الإنسانية المعقدة بوعي ومسؤولية.

المشهد المحوري لبكاء فاطمة الصامت وسط الهمسات المبهمة.. يرسم لوحة درامية بامتياز، محملاً بتوتر نفسي يشف عن عوالم داخلية مضطربة.

ان تناول هذا الامر يُظهر جرأة نقدية نادرة لدى الكاتبة سعاد الراعي.. إذ تحوّل الفضاء المدرسي، رمز النظام إلى ساحةٍ للاضطراب العاطفي.

النهاية المفتوحة ("درسها الأخير") تترك القارئ في صدمةٍ تأويلية، كأنها إشارة إلى أن بعض الدروس لا تُنسى، بل تُغيب قسراً.

الشاعر طارق الحلفي



روائية وناقدة

وُلدت في مدينة النجف،
ونشأت في بغداد، حيث
تفتّحت عيناها على نبض
الفن والفكر.

بدأت مسيرتها العلمية
بدراسة الأرشفة والصحافة،
مسكونة بالشغف للكلمة
وتوثيق الحقيقة، غير أن



الظروف السياسية العاصفة أواخر السبعينات أرغمتها على مغادرة العراق، فكانت الهجرة قدرًا فرضته المبادئ.

لم توقفها المنافي، بل كانت منطلقًا جديدًا لمسيرة حياتها، فحصلت على درجة الماجستير في الاقتصاد السياسي من بلغاريا، وواصلت رسالتها المعرفية بالتدريس في جنوب اليمن ثم ألمانيا.

في موازاة ذلك، خاضت غمار الإبداع العملي والفني، فتخصصت في فن التصميم والخياطة، وعملت بهما في عدة دول، لتكون ألمانيا محطتها الأخيرة في هذا المجال تاركة بصمتها الخاصة

تنوعت خبراتها في ألمانيا بين الترجمة والعمل وفي المجالات الاجتماعية والتربوية.

أحبت الأدب وشغفت به منذ نعومة أظفارها. لها مساهمات أدبية ونقدية. نُشرت وتُنشر في عدد من الصحف والمواقع الإلكترونية.

صدر لها:

- * رواية بعنوان بين غربتين، الجزء الأول 2025؛
- * "الرجل الذي سبق الثورة" الجوانب الإنسانية في سيرة
سلام عادل - المانيا
- * رواية "خلع الخاتم/ - 2025 - المانيا.
- * رواية "الحرز - 2026 - المانيا/ طبعة اولى
- * رواية "الحرز - 2026 - المانيا/ طبعة ثانية

لها تحت الطبع

- * مجموعة قصصية بعنوان " النخلة العمدة- وابناءها
الاشقياء"
- * مجموعة قصصية بعنوان " هي امي وان قست"



العنوان	الصفحة
المقدمة	1
ان شاء الله يا استاذة	5
ذاكرة في ظلال الغياب	17
عندما يكون الفكر ثالثهم!	31
حلم لم يولد	37
في حضرة الاستاذة	46
عقدة كاتب	56
الماضي يطرق بابنا	63
طيف على حدود العدم	71
الدرس الاخير	84
آراء وملاحظات بعض الكتاب والنقاد	91
الكاتبة في سطور	125



يضم الكتاب قصًا تسعة، تبرع الكاتبة في الانتقال بها في عوالم من الشخصيات التي، بلا شك، قد خبرتها وفهمت جوانبها النفسية بعمق. الأستاذة ذاتها تتسم بشخصية متزنة، حكيمة، ذات عمق فكري وأخلاقي، وتستطيع أن تتحول من حالة الدهشة والمرارة إلى حالة الهدوء والتفكير العميق. تنتظم تلك القصص القصيرة جميعها بخيط يمثل الصراع الجدلي بين الحداثة والتقليد، الهوية والانتماء، وإشكالات الغربية بما تلقيه من ظلال قاتمة على المعترك النفسي.

من المقدمة